دور الأخوين خير الدين برباروس وعروج في مقاومة الإستعمار الإسباني في شمالي أفريقيا

دكتورة: نيفين مصطفى حسن سعد
كلية الآداب – جامعة المنوفية

مقدمة

في الوقت الذي اشتدت فيه الهجمات الإسبانية على سواحل المغرب الإسلامي عامة، والسواحل الجزائرية بصفة خاصة، ضمن مشروع استعماري يهدف إلى استعمار المنطقة كلها، ظهر الإخوة برباروس الذين أدوا دورا حاسما في توجيه الأحداث بمنطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط.

وبظهور هؤلاء الإخوة شهدت منطقة المغرب الإسلامي تطورات سريعة، أدت لميلاد الدولة الجزائرية الأولى، والتي فرضت نفسها كقوة جديدة مؤثرة في تاريخ البحر الأبيض المتوسط طيلة ثلاثة قرون. وقد سطع نجم الإخوة برباروس بفضل الانتصارات التي حققوها ضد النصارى الإسبان، وإنقاذهم لآلاف الأندلسيين الفارين من إسبانيا (١).

وهنا، لنا أن نتسائل: ما الدور الذي أداه القادة البحريون الجدد في تعزيز النفوذ العثماني في تلك المناطق؟ ستقودنا الإجابة عن هذا التساؤل للحديث عن شخصيتين بارزتين في التاريخ البحري العثماني، هما الأخوان خير الدين برباروس وعروج، اللذان أخذا على عاتقهما مهمة مواصلة عمليات الفتح العثماني في شمالي أفريقيا وحماية المسلمين فيها.

اعتمدت هذه القوة الإسلامية الجديدة في جهادها أسلوب الكر والفر في البحر، بسبب عدم قدرتها في الدخول في حرب نظامية ضد القوى المسيحية من الأسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا، وقد حقق هؤلاء المجاهدين نجاحا أثار قلق القوى المعادية، ثم رأوا بنظرهم الثاقب أن يدخلوا تحت سيادة الدولة العثمانية لتوحيد جهود المسلمين ضد النصارى الحاقدين (٢).

وقد حاول المؤرخون الأوروبيون التشكيك في طبيعة الحركة الجهادية في البحر المتوسط ووصفوا دورها بالقرصنة، لذلك أثروا على تسمية هذا الدور العربي الإسلامي باسم القرصنة، هي تسمية خاطئة ومجحفة، فهذا الدور هو جهاد بحري ضد أعداء الإسلام من الأوربيين، فمجاهدوا شمال أفريقيا خاضوا صراعا ضد الصليبيين وبرتغاليين وإسبان أرادوا الاستيلاء على بلادهم وتحويل سكانها إلى المسيحية وطمس عروبتهم، فوصفهم بالقراصنة مبعثة شعور هؤلاء الأوروبيين بالمقت والضغينة (تجاه هؤلاء المجاهدين) بسبب ما أنزلوه من خسائر بالأوربيين وبفرسان القديس يوحنا (٣).

---

(1) Diego de Haedo, Histoire des rois d'Alger, traduit de l'espagnol par de Grammont, editions grand – Alger – livres, Alger, 2004, p. 14.

(2) Stanford J. Show, History of Ottoman Empire and Modern Turkey, vol. I, Carnbridge University press, Cambridge, 1976 – 1977, p. 79.

(٣) عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٤ م، ج ٢، ص ١٧٧.

أما الأخوة برباروس فاشتهروا بأنهم لم يكونوا قراصنة في أساليبهم وأهدافهم، لقد خرجوا للجهاد في سبيل الله، وكانوا زاهدين بما يحوزونه من غنائم وما أرادوا من الغنائم إلا استنزاف قدوة العدو وزيادة قوة المسلمين، بدليل أنهم كانوا يقدمون ما يحصلون عليه إلى والى تونس وإلى بيت مال المسلمين وإلى صندوق الخزانة في الإمبراطورية العثمانية.

كما أن تلك البحرية العربية كانت خاضعة لسلطة القيادات المسؤولة عن الحكم في المناطق الساحلية، فهي بذلك تشبه البحرية الحديثة. أما سفن القراصنة فكانت تخضع لبعض رؤساء البحر الذين يشبهون في عملياتهم عمليات قطاع الطرق، ولا يتراجعون عن مهاجمة أي سفينة، حتى وإن كانت خاضعة لجيرانهم أو لحكوماتهم، حتى يتمكنوا من أسرها أو الاستيلاء على حمولتها، وهناك فرق كبير بين قاطع الطريق وسلطة الدولة التي تعمل على استتباب الأمن، وتعمل على حماية الأرواح والممتلكات، وإذا ما أصر الغرب على تسمية هذه الحركة باسم القرصنة، فإن هذه التسمية تمتد بالتالي على كل القوات البحرية للدول الغربية في ذلك الوقت (٤). وفي عهد الدولة العثمانية راجت القرصنة وانتعش منها أناس كثيرون وكانت لبعضهم منها ثروة طائلة (٥).

أصل الأخوين خير الدين وعروج:

بعدما تسلطن السلطان العثماني محمد الفاتح عام ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م، وتم فتح جزيرة ميدللي (ميتلان) اليونانية في بحر الأرخبيل سمح بالإقامة فيها للجنود والمتطوعين العثمانيين (٦)، فهاجر إليها الكثير من الأقطار الإسلامية، وكان في طليعة المرابطين بعض الأسر الأندلسية التي تم تهجيرها. وكان من بين الجنود العثمانيين الذين رابطوا في تلك الجزيرة البحار التركي يعقوب بن يوسف، وأصبح جنديا عثمانيا تابعا لأحد فرسان السباهية (٧) وأعتنق الدين الإسلامي، وكانت له في منطقة واردار المجاورة لسلانيك إقطاعية

---

(٤) رأفت غنيم الشيخ: أقرصنة أم جهاد بحري إسلامي، صفحة من محاولة تشويه تاريخ الأمة الإسلامية، بحث مقدم إلى ندوة " تاريخ الأمة الإسلامية بين الموضوعية والتحيز " بالتعاون بين كلية الآداب – جامعة الزقازيق ورابطة الجامعات الإسلامية التي عقدت في الفترة من ٢١ – ٢٣ ربيع الأول ١٤١٠ هـ / ٢١ – ٢٣ أكتوبر ١٩٨٩ م، ص ٨٢؛ جلال يحيى، المغرب الكبير: العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦ م، ص ٢٠ – ٢١. بسام العسيلي، خير الدين بربروس (والجهاد في البحر ١٤٧٠ – ١٥٤٧ م) دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠ م، ص ١٧٤.

(٥) نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، دار الحضارة، ٢٠٠٦،ص٦٦. كورين شوفالييه،الثلاثون سنه الأولي لقيام دولة مدينة الجزائر (١٥١٠-١٥٤١) ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،٢٠٠٨م ، ص ٤٩.

(٦) يحيى بو عزيز، الموجز في تاريخ الجزائر (الجزائر الحديثة) ديوان المطبوعات الجامعية، وزارة الثقافة، الجزائر، ٢٠٠٧ م، ج ٢، ص ١٠.

(٧) السباهية: الإسباهية أو السباهية تطلق على أوجاق الفرسان وهو أوجاق الجنولليان أو كوكليان وتفنكجيان؛ أي جنود المدفعية والجراكسة، أما عن خدمتهم فقد عينوا من الحكام، وعليهم حفظ الجسور السلطانية، وأما كبراء الأوجاقات المذكورة مثل باش جاويش والأغا والجوربجية والأنفار وأصحاب الخدم، فيكونون مقيمين بالقاهرة، حفاظا عليها من الباشا والأمراء، وعوائدهم على طرف البلاد مرتبة بالمخرجات؛ وهي أوراق خدم العسكر ولهم عوائد على طرف الميري من داخل موجبات العساكر ولهم عوائد أيضا على طرف الباشا ولهم بلدان وقف وهما ناحية البدرشين وما معهما، ومن ناحية الشباب بولاية الجيزة سوية بينهم وإن الاوجاقات المذكورة، وهم الصنجقية والنظار على حكام الولايات الذين لم يقدروا أن يحكموا بشئ في الولايات إلا بإطلاع الجوربجية والمتولية الذين ينزلون في الولاية المذكورة (مصطفى بن الحاج إبراهيم، تاريخ وقايع مصر القاهرة المحروسة كنانة الله في أرضه، تحقيق صلاح أحمد هريدي علي، دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢ م، ص ٤٢، حاشية ٢؛ مذكرات خير الدين، ترجمة محمد دراج، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠١٢ م، ص ٢١، ح ١؛ محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مكتبة الأداب، القاهرة، ٢٠٠٩ م، ص ٩٥.

من الأرض وهبها له السلطان محمد الفاتح عندما استقر بالجزيرة في سـنة ١٤٦٢ م (٨). وبعدما طالت مدة المرابطة طلب المقاتلون العزاب من السلطان محمد الفاتح أن يسمح لهم بالزواج، فأذن لهم بشرط الاستقرار في جزيرة ميدللي، فتزوج يعقوب بن يوسف من أرملة قس يوناني، وأنجبت له أربعة أولاد ربتهم على حب الجهاد. وهم إسحاق وعروج و (خضر) خير الدين ومحمد إلياس. أما مسألة تاريخ ولادتهما فلا تزال موضع جدل وخلاف بين المؤرخين (٩). وقد أطلق اسم بربروسا أساسا على أوروج، الأخ الأكبر لأربعة أخوة (١٠). في حين يشير خير الدين (خضر) في مذكراته إلى أن عروج هو الأخ الثاني الأكبر لأربعة أخوة (١١). وثمة من يقول أن اسم بربارós منسوب إلى لحيته الحمراء، أو أنه ترجمة محرفة لعبارة بابا عروج. وبعد وفاة أوروج أطلق الاسم على أخيه (١٢)، وعمل يعقوب بعد خروجه من الجندية صانع فخار، وكان عروج وخير الدين يبيعان الفخار لأبيهما في الجزر اليونانية بواسطة بعض المراكب (١٣). وفي احدى المرات وقع عروج أسيرا وبيع عبدا لشخصين بجزيرة رودس. وفي أثناء توجهه إلى مصر كمجدف في سفينة تحمل أسرى مسلمين جرى افتداؤهم بالمال، اغتنم فرصة حدوث زوبعة بحرية ففر من المركب، وانتهى به المطاف إلى أنطاليا بإمارة (قرمان) حيث تعرف على شخص صاحبه معه إلى مصر وكلفه بقيادة مركب بحري يحمل الأخشاب لصنع السفن، ولسوء الحظ اعترضه بعض قراصنة رودس وأحرقوا له سفينته فعاد إلى أنطاليا وتعرف بالأمير قرقود (١٤) شقيق السلطان سليم الأول. فأكرم مثواه لما لاحظه عليه من سمات البطولة والنخوة، وجهز له سفينة للجهاد في البحر المتوسط الشرقي ضد القراصنة المسيحيين، وتوجه بعد ذلك إلى سواحل قبرص حيث استولى على خمس مراكب تابعة للبندقية، ومن هناك توجه نحو الغرب فوصل إلى جزيرة جربة جنوب شرق تونس عام ١٥٠٤ م، فاستقر بها حيث باع غنائمه لتجار الجزيرة (١٥)، ولحق به أخواه خير الدين (خضر -) وإسحاق وأصبح لديهم حوالي اثنتى عشرة سفينة، وكان يتميز هؤلاء الإخوة بالشجاعة ومعرفة علوم البحر مما جعلهم قراصنة مهابي الجانب في البحر

---

(٨) مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص ٢١؛ علي رضا سيفي، بارباروس خير الدين، شمس مطبعة سي، در سعادت، ١٣٢٦ –١٣٢٨ هـ [١٩٠٨ – ١٩١٠ م]، ص ٢٢؛ وتحدث عزيز سامح بالتفصيل عن نشأة الأخوة بربروسا. انظر: عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، ص ٢٧ – ٣٦؛ عبد العزيز محمد الشناوي، مرجع سابق ج ٢، ٢٠٠٤ م، ص ١٨٢ – ١٨٣. أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا، (١٤٩٢ – ١٧٩٢) دار البصائر، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧ م، ص ١٤٢.

(٩) وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب عبد القادر زيادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٦ م، ص ٣٧؛ أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(١٠) مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص ٢١. وقد أيد هذا القول يلماز أوزتونا حيث ذكر بأن الإبن الأكبر ليعقوب كان اسحاق ويليه عروج وخضر (خير الدين) وإلياس، وفرق العمر بينهم قليل جدا؛ ولمزيد من التفاصيل حول الأخوة بارباروس انظر، يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، محمود الأنصار، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا – استانبول، المجلد الأول، ١٩٨٨ م، ص ٢٣٩.

(١١) مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص ٢١ – ٢٢. يحيى بو عزيز، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٠.

(١٢) مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر، ١٩٣٤ م، ص ١٣؛ مجاهد مسعود، تاريخ الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٢ م، ج ١، ص ٨١.

(١٣) يحيى بو عزيز، مرجع سابق، ص ١١.

(١٤) الأمير قرقود، الابن الثالث للسطان با يزيد الثاني، والأخ الأكبر للسطان سليم الأول اشتهر بحمايته للبحارين الأتراك، قتله السلطان سليم الأول بعد جلوسه على عرش السلطنة عام ١٥١٢ م. انظر: مذكرات خير الدين، ص ٢٩.

(١٥) مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص ٤٢. يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ص ٢٤٢. يحيى بو عزيز، مرجع سابق، ج ٢، ص ١١.

المتوسط (١٦). واتفق عروج مع الأمير الحفصي أبي عبد الله محمد علي أن يسمح لهم بجعل جربة مركزا لأسطولهما، ويفتح كل الموانئ التونسية لهم عند الضرورة مقابل خمس الغنائم التي يغتنموها في البحر، فأخذوا يجاهدون ضد القراصنة المسيحيين وبخاصة الإسبان منهم والبرتغاليين، ولما كانت جربة بعيدة عن ميدان الجهاد الحقيقي في الحوض الغربي للبحر المتوسط، حيث كثرت هجمات الإسبان على السواحل الأفريقية، فقد اتفقوا مع الأمير الحفصي – على نقل مركزهم العسكري من هناك إلى حلق الوادي في أقصى شمال شرق تونس في نفس العام (١٧).

كان الأخوان برباروس يعملان بالملاحة في بحر إيجة تحت حماية الأمير قورقود، الذي كان واليا على مسينا في حينه. وحينما حدث الصراع على العرش العثماني بين المرشحين في أواخر حكم السلطان بايزيد الثاني، منع السلطان سليم الأول، الذي نجح في تولي العرش، الملاحة في بحر إيجة لمنع فرار أخيه من دون إذنه (١٨). لأنه عد بقاءه على قيد الحياة تهديدا، بينما بينما كان يتهيأ لمهاجمة الصفويين، فطوق قصره في مسينا سرا، وبعد أن هرب ألقى القبض عليه وأعدمه في سنة ١٥١٣ م (١٩)، وقبل أن يحدث ذلك، كان الأخوان قد توجها إلى شمالي أفريقيا، إلى جزير جربة على الساحل التونسي – تحديدا (٢٠) ثم أبحر غربا فيما بعد، وسعى للحصول على حماية عبد الرحمن الحفصي، لغرض استخدام موانئه، وقد قبل الأخير حمايته طالما استمر بدفع ثُمن الحفصي، كان مرغما على قبول تلك الحماية ولم يكن مخيرا فيها؛ فقد أمره السلطان سليم بالتعاون مع الأخوين وحذره من مغبة التقصير في ذلك (٢١). ومع ذلك، كانت هذه الاتفاقية مفيدة للطرفين؛ إذ سيؤمن عروج بموجبها ملجأ لقوته البحرية، بينما سيتمتع عبد الرحمن الحفصي بعوائد إضافية. وعليه، فقد منح أوروج قلعة حلق الوادي، وهي بخلاف جزيرة جربة، تقع على ساحل أفريقيا الشمالي، ومناسبة جدا لقباطنة البحر، فمنها بدأوا بشن حملاتهم على السواحل الجزائرية، ولا سيما بجاية.

عروج ومحاولة تحرير المستعمرات الإسبانية:

ويعود تاريخ أول حملة شنها عروج بهدف إزاحة النير الإسباني عن بجاية إلى صيف سنة ١٥١٤ م (٢٢) بطلب من عبد الرحمن الحفصي حاكم تونس، الذي وعده بمكافأة قيمة إذا ما نجح في

(١٦) مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص ٤٢. كورين شو فالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (١٥١٠ – ١٥٤١) ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٨، ص ٢٦؛ رضا سيفي، مرجع سابق، ص ٢٢ –٢٥؛ يحيى بو عزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج ٢، ص ١٠ – ١١.

(١٧) رضا سيفي، باربارسوس خير الدين، ص ٢٢ – ٢٥؛ يحيى بو عزيز، مرجع سابق، ج ٢ ص ١٠ – ١١.

(١٨) مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص ١٤٤؛ مجهول، غزوات خير الدين، ص ١٥.

(١٩) يحيى بو عزيز، مرجع سابق، ج ٢، ص ١١ – ١٢.

(٢٠) عزيز سامح إلتر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ص ٣٨ – ٣٩.

(٢١) ذكر خير الدين بربروسا في مذكراته أن السلطان سليم الأول كان قد أرسل خطا همايونيا إلى سلطان تونس، جاء فيه: إلى أمير تونس: إذا وصلك كتابي هذا عليك أن تعمل به، واحذر أن تخالفه، وإياك أن تقصر في تقديم أي عون لخادمينا عروج وخير الدين. مذكرات خير الدين بربروسا، مرجع سابق، ص ٦٨.

(٢٢) يذكر بربروسا، في مذكراته، أنه كان ينوي التوجه مع أخيه إلى جنوا. ولكن، بسبب الرياح المعاكسة، توجها إلى الجزائر، فنزلا في قلعة بجاية، حيث تعقبتهم السفن الإسبانية وحدثت بين الطرفين معركة كبيرة، تمكنا بعدها من الاستيلاء على سفينة القيادة الإسبانية مع ثلاث سفن أخرى. ولكن بربروسا لم يشر إلى تاريخ محدد لهذه المعركة. مذكرات خير الدين، مرجع سابق ص ٥٠؛ كاتب جلبي، تحفة الكبار في

هدفه، وحسب قول ابن أبي ضيف، فإن علماء وأعيان المدينة طلبوا بدورهم نجدة عروج حيث قال: " وكاتبه العلماء والأعيان من أهل بجاية يستصر خونه في إنقاذها من يد العدو [٢٣] على هذا الأساس جهز عروج قوة بلغت عدة آلاف من المقاتلين و (١٢) سفينة مجهزة بالمدافع، وفرض الحصار على ميناء المدينة، بينما قام عبد الرحمن بمحاصرتها بثلاثة آلاف موريسكي مدعومين بجنود عروج أيضا، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل؛ فبعد ثمانية أيام من الحصار انسحب الجنود بعد أن أصيب عروج في ذراعه اليسرى، فأخذه أخوه خير الدين إلى تونس، حيث بترت ذراعه [٢٤]. وهكذا انتهت المرحلة الأولى من حصار بجاية.

في هذا الوقت كان خير الدين قد تمكن من تحرير جيجل من الجنويين بسبع سفن، ثم أرسل وفدا برئاسة محيي الدين ريس إلى اسطنبول. وكان الوفد محملا بهدايا إلى السلطان سليم الأول وكبار المسؤولين العثمانيين، بهدف إعلان الطاعة والولاء للسلطان، الذي رحب بهذه المبادرة ومنح محيي الدين، بالمقابل، قادسين [٢٥] حربيين من نوع قادرغة [٢٦]. وأمر بتجهيز قوادسة بالمعدات.

وفي سنة ١٥١٥ م، بدأت المرحلة الثانية من حصار بجاية [٢٧] بدعم من القوات الحفصية في تونس، حينما قرر عروج مجددا، تلبية دعوة عبد الرحمن الحفصي، الذي جدد بدوره وعده لعروج وزوده بقوة من المقاتلين. وبالتعاون مع أخيه، سارت العمليات العسكرية في حصار بجاية بنجاح في بادئ الأمر؛ إذ نجح الأخوان بانتزاع القلعة من الإسبان، بمساعدة جنود أحمد بن القاضي [٢٨] لكن القلعة الداخلية للمدينة ظلت صامدة بسبب وصول قوة دعم إسبانية مكونة من (٥٠٠) جندي بقيادة مانشن دي فنجورا (Manchin de Ventura). حينذاك طلب عروج من عبد الرحمن الحفصي – تزويده بمدافع [٢٩] ومع ذلك، ففي المحاولة الثالثة تمكن عروج من دخول بجاية بمناورة حربية ذكية لكنه قرر الانسحاب إلى جيجل

أسفار البحار، قسطنطينة، دار الطباعة المعمورة، ١١٤١ هـ، ص ٦٠، أما أحمد توفيق المدني، فيذكر أنهما فرضا الحصار على بجاية سنة ١٥١٢؛ أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ١٢؛ في حين يذكر يلماز اوزتونا أن أول حصار على بجاية كان في شهر كانون الأول / ديسمبر سنة ١٥١٤ م. تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الأول، ص ٢٤٦.

(٢٣) أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار التونسية للنشر، تونس، ج ٢، ١٩٧٧ م، ص ١٠ – ١١؛ أحمد توفيق لمدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ١٣٣ - ١٣٤.

(٢٤) المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ١٦٥. مجاهد مسعود، تاريخ الجزائر، ج ١، ص ٨٠ - ٨٣.

(٢٥) قادس: الجمع قوادس وهي السفينة العظيمة الكبيرة. درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، الاسكندرية، ١٩٧٤ م، ص ١١٨.

(٢٦) قادرغة: هي نوع من السفن الحربية الكبيرة كانت تستعمل في حوض البحر الأبيض المتوسط في القرن السادس عشر -، وكانت مجهزة بمدافع ضخمة، درويش النخيلي، مرجع سابق، ص ١١٨.

(٢٧) كان من المقرر أن يتوجه خير الدين وعروج برباروس إلى سبته ومنها إلى الأندلس لإنقاذ المسلمين هناك، بعد عودة بيرى رئيس من استطنبول، ولكن حدث أن وصل وفد من بجاية حاملا رسالة ذكر فيها أنهم لم يعودوا يستطيعون أداء الصلاة أو تعليم أطفالهم قراءة القرآن، بسبب ظلم الإسبان، وطلب الوفد من الآخوين التعجيل بإنقاذهم من الإسبان، مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص ٦٧.

(٢٨) كان أحمد بن القاضي الغبريني زعيما دينيا لقبيلة قابيليا الكبرى، التي تحالف أوروج معها للحصول على الدعم المحلي. وكانت قبائل قابيليا قد انقسمت على ثلاثة قبائل خلال هذه المرحلة، وكان أحمد بن القاضي حاكما لإحداهما، وهي قبيلة كوكو القاطنة في الجانب الشرقي من بجاية وأدت دورا مهما في حملات القباطنة، لا سيما لو أخذنا بنظر الاعتبار أن القبيلتين الأخريين قد وقفتا إلى جانب الإسبان. انظر، أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ٩٦ – ١٠٢، ١١٠ – ١١٧. وذكر وليم بيريسكوت أن الحملة وصلت مقابل ميناء قرطاجة في الثالث عشر من سبتمبر سنة ١٥٠٥ م. انظر:

William Hickling Priscott, History of the Reign of Fernand and Isabella the Catholic of Spain, vol. 3, 5th ed. , Richard Bentley, London, 1849, p. 265.

(٢٩) عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في شمال أفريقيا، ص ٤٧ – ٤٨.

بسبب شحة البارود ولأن وضعه بين سكان بجاية لم يكن مستقرا (٣٠) ومع أن صورة عروج كانت حسنة وسمعته جيدة بين سكان بجاية وبين الجزائريين عموما منذ سنة ١٥١٣ م، لكن هذه النظرة تغيرت حينما دخل المدينة، بسبب سوء تصرف بعض جنوده. وعلى الرغم من أنه حاول أن يكسب ودهم، إلا أن ولاءهم لم يكن لصالحه دائما حتى أنهم حاولوا طرد جنوده بمؤامرة سرية (٣١).

استنجاد أهالي الجزائر بالأخوة بربروس:

أرسل أهالي الجزائر رسالة إلى السلطان سليم الأول في ١٥١٩ م، وذكروا الأخوين بربروس باحترام وصوروهما للسلطان منقذين لهم من الإسبان، وبينوا له أنهم هم الذين دعوا عروجا في البداية، لا سيما وأنه حاول إقامة علاقات طيبة في المنطقة، وجهز القبائل المجاورة بالحبوب، كما توسط لحل الخلافات بين القبائل المتنازعة (٣٢) وعلى الرغم من عدم تحقيق نجاح في حملات بجاية، إلا أن الأخوين بربروس نجحا في تأسيس قوة كبيرة في المنطقة، وتزايدت شعبيتهما على نحو ملحوظ وملفت للانتباه (٣٣)

وعلى هذا الأساس تزايدت شعبية الأخوين خلال مدة قصيرة جدا. ففي سنة ١٥١٦ م غيرت دعوة أخرى من أهالي الجزائر مسار الأحداث في المنطقة بسبب قيام الإسبان، منذ سنة ١٥١٠ م، بإنزال الوضع الإداري للجزائر إلى مرتبة إقطاعية تحت شروط ثقيلة، وإنشائهم حامية إسبانية في قلعة بينون. نتيجة لذلك، استسلم حاكم المدينة، سالم التومي، لضغط الجزائريين وأرسل مبعوثا إلى جيجل طالبا مساعدة أوروج ضد الخطر الإسباني (٣٤). ولكن يوجد رأي آخر لفيشر لفيشر فهو لا يعتقد أن سالم التومي هو الذي بدأ مثل هذه الخطوة، لأن خلافا سرعان ما نشأ بين أنصاره وبين سكان البلاد، يتضمن أيضا انصار أحمد ابن القاضي، الذين وصفوا سالم التومي بأنه عميل إسباني، استنادا إلى رسالة تعزية أرسلها له الضابط دييغو دي فيرا (Diego De Vera) بمناسبة وفاة ولدي سالم التومي، وصفة فيها بالمحترم والموالي (٣٥).

---

(30) Stanley Lane – Poole, The Story of Barbary Corsairs, London, 1890, pp. 45 – 46.

(٣١) جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار، ص ٦١؛ يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٤٨.

(٣٢) عبد الجليل التميمي، " أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة ١٥١٩ "، المجلة التاريخية المغربية، العدد ٧ – ٨، جانفي / يناير، ١٩٧٧ م، ص ١١٧ [١١٦ – ١٢٠]. ونشر النص الفرنسي لهذه الرسالة في:

Temimi, Abdeljelil, " Lettre de la Population Algeroise Sultan Selim ler en 1519 ", Revue d' Histoire Maghrebine, tome V, Tunis, Jan. 1976, pp. 95 – 101.

والرسالة محفوظة في مركز الوثائق الوطنية بمتحف طوب قابي بإسطنبول، تحت رقم (٦٤٥٦).

(33) Robert Mantran, " North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries ", in: P. M. Holt & Bemard Lewis (eds.) The Cambridge History of Islam, vol. II, University press, Cambridge, 1970, p. 249.

بموجب هذه الاتفاقية توجب على الجزائريين أن يعيدوا الأسرى المسيحيين فورا، وأن يتعهدوا بمنع غارات القراصنة ويرفضوا دخولهم إلى موانئهم، فضلا عن دفع إتاوة لعشر سنوات. وبالمقابل، يقوم الإسبان بضمان السيطرة على المدينة عن طريق إحدى الجزر الصخرية الأربع الموجودة هناك، كما تقرر إنشاء حامية إسبانية في قلعة البينون. انظر: المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ١٢٦ – ١٢٧.

(٣٤) لا يؤيد أحمد توفيق المدني مثل هذه الرؤية، ويذكر، بدلا من ذلك، أن سالم التومي حاول الاستحواذ على السلطة والتفرد بها بعد أن تمكن تمكن عروج من فتح الجزائر. حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ١٧٢ – ١٧٥. جمال فنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث (١٥٠٠ – ١٨٣٠)، المؤسسة الجزائرية للطباعة، ١٩٨٧ م، ص ٣٦ - ٣٧.

(35) Godfrey Fisher, Barbary legend war, Ttrade and piracy in north Africa; 1415 – 1815, clarendon press, oxford, 1957, p 48.

لذلك اتجه عروج إلى الجزائر بستة عشر سفينة مجهزة بالمدفعية والذخيرة و ٨٠٠ جندي، وانضم إليه مجموعة تابعة لحليفه أحمد ابن القاضي. وفي الطريق هاجم شرشال، التي زعمت بعض المصادر أن أحد القراصنة، وهو المدعو قرة حسن، قد احتلها وأسس بها إمارة صغيرة، وإن عروجا، انزعج من نشاطات قرة حسن بسبب إرباكه الدفاعات الجانبية، فاستولى على المدينة وقطع رأسه وترك بالمدينة حامية لحراستها ثم عاد إلى مدينة الجزائر، حيث استقبله سكانها وعلى رأسهم الشيخ سالم التومي استقبال الفاتحين (٣٦).

على أية حال، لم يواجه عروج أية مقاومة من الجزائريين، فدخل المدينة بسهولة وسط ترحيب السكان في سنة ١٥١٦ م. وكانت أول أهدافه تدمير معالم الهيمنة الإسبانية في المدينة، ولا سيما قلعة البينون، التي استخدم لتدميرها — ضد رغبة السكان — مدافع ذات مديات قصيرة غير كافية لتدمير القلعة، ففشل في تدميرها. وقد أسهم هذا الفشل في تدهور شعبيته بين السكان المتضررين، مسبقا، من التصرفات غير المسؤولة لبعض جنوده. فما أن دخل المدينة حتى أكتشف مؤامرة ضده بتدبير من بعض عملاء الإسبان في المنطقة (٣٧). ولا سيما سالم التومي الذي أعدمه عروج، وأعلن نفسه حاكما بدلا عنه (٣٨). وبدخول الأخوين الجزائر أصبح وضعهما مستقلا أكثر من ذي قبل.

الصراع على الجزائر (١٥١٦ – ١٥٢٨ م) وقتل عروج:

أدى دخول الأخوين بربروس إلى الجزائر في سنة ١٥١٦ م إلى توازن القوى في شمالي أفريقيا، وحولهما من مجرد قراصنة بسطاء إلى مصدر خطر على السواحل الإسبانية، لا سيما بعد أن أصبحا يتمتعان باكتفاء ذاتي، قادرين على إنجاز نشاطاتهما دون الحاجة إلى موانئ تونس وأمزجة حكامها، على الرغم من أن تلك الموانئ كانت مفيدة لهما عندما سمح لهما السلطان عبد الرحمن الحفصي باستخدام قاعدة حلق الوادي، فضلا عن جيجل وجزيرة جربة (٣٩) ومن ناحية أخرى، أثبت استقرارهما في الجزائر فائدته لهما أيضا. فبعد حصولهما على دعم بعض الحلفاء المهمين في المنطقة، لا سيما أحمد بن القاضي، تصاعدت أهميتهما وتعاظم نطاق نفوذهما. ويمكن ملاحظة ذلك بسهولة منذ أن فكرا بتأسيس شبه مملكة في المنطقة، حيث باشرا إدارة عملياتهما العسكرية، بل وحتى مناوراتهما الدبلوماسية بطريقة أثارت شكوك الإسبان في المنطقة، وقلقهم أيضا.

---

(٣٦) ذكر أحمد توفيق المدني أن الإسبان تكبدوا نحو ثلاثة آلاف قتيل إلى جانب المؤن والعتاد نتيجة المقاومة العربية في طرابلس للاحتلال الإسباني. انظر: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ١٤٤ — ١٤٥؛ بسام العسيلي، خير الدين بربروس، ص ٩٥ – ٩٦.

(37) Jamil Abun – Nasr, A History of the Maghrib in the Islamic Period, Carnbridge University Press, Cambridge, 1987, p. 148.

مذكرات خير الدين بربروس، مرجع سابق، ص ٤١.

(٣٨) عن تفاصيل هذه الحوادث انظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ١٧٤ — ١٧٦، وهو يذكر أن عروجا ربما ربما كان هو من نفذ حكم الإعدام بسالم التومي، في حين يذكر يلماز أوزتونا (تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الأول، ص ٢٤٨ — ٢٤٩) أنه أعدم بناء على فتوى من علماء تلمسان في نوفمبر سنة ١٥١٧، فاعتلى العرش أخوه أبو حمو الثالث. وما ذكره أوزتونا لا يتنافى، بكل الأحوال، من أن مسألة الإعدام تمت بأمر من أوروج، أو، في الأقل، بعلم منه. لكن الاختلاف في مسألة تولي حكم الجزائر بين أبي حمو الثالث وعروج. أما بسام العسيلي ذكر أن عروج قتل سالم التومي بيده لقاء خيانته والتي أكدها أحد عملاء الإسبان من شيوخ العشائر في الرسالة التي أرسلها للكاردينال خمينيس، انظر بسام العسيلي، خير الدين بربروس، ص ٩٥.

(٣٩) يؤكد أحمد توفيق المدني أن معركة قاسية جرت في جزيرة قرقنة، تكبد فيها الإسبان خسائر جسيمة، فلم يبق ولا رجل واحد على قيد الحياة. أما ساندوفال فيتجاهل موضوع المقاومة المحلية تماما ويكتفي بالإشارة إلى العاصفتين. انظر: المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ١٤٥؛ بسام العسيلي، مرجع سابق، ص ٩٥.

لذلك قررت إسبانيا إرسال حملة لإعادة الجزائر تحت قيادة الكاردينال خيمينس (٤٠) وكانت خطته التوسعية قد توقفت بعد فشل الحملة على جربة في الثلاثين من أغسطس سنة ١٥١٠، فلجأ الإسبان إلى قلعة البينون الاستراتيجية واتخذوها قاعدة ضد تصاعد قوة الأخوين بربروس، اللذين شكلا قلقا للإسبان منذ مجيئهما إلى المنطقة وفرضهما الحصار على بجاية في صيف سنة ١٥١٤ م. على هذا الأساس، شن الإسبان ثلاث حملات نحو المنطقة بين سنتي (١٥١٦ – ١٥٢٠ م)، لكنها لم تكن حاسمة؛ فقد تحدوا محاولة الأخوين بربروس للسيطرة على الجزائر مرتين، ونجحوا في حملة أخرى في قتل الأخ الأكبر عروج.

في هذه المرحلة انشغلت إسبانيا بالشؤون الأوروبية مجددا، لا سيما مع تجدد الصراع على عرش آل هابسبورغ مع آل فالوا في فرنسا. من جهة أخرى، كانت هناك مشكلات داخلية في إسبانيا ذاتها. فقد سيطر القشتاليون، خلال حرب (١٥٢٠ – ١٥٢٢ م)، على مناطق واسعة من إسبانيا، ولا سيما بلد الوليد وطليطلة وغيرها من المدن التي يقطنها المسلمون، ونجحوا في أسر نائب الملك شارل الخامس، البابا أدريان السادس (Adrian VI) (١٥٢٢ – ١٥٢٣) (٤١) في مثل هذه الأحوال كانت الحرب ضد العثمانيين، أو ضد القباطنة في شمالي أفريقيا تحديدا، مسألة ثانوية أو حتى نوعا من أنواع الترف، وهذا فيما يخص الإسبان.

أما العثمانيون، فقد كان لهم خططهم الخاصة أيضا، فبعدما تولى السلطان سليمان القانوني العرش في الخامس عشر من سبتمبر سنة ١٥٢٠ م قرر مهاجمة الغرب المسيحي أولا، وطرد فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودس لتأمين الشطر الشرقي من البحر المتوسط، بعد أن أصبح الشطر الأوسط منه، ممثلا بالجزائر، تحت حماية الاسمية للدولة العثمانية منذ سنة ١٥١٩ م، عندما أرسل خير الدين بإسم أهالي الجزائر، أبا العباس أحمد بن القاضي مبعوثا إلى السلطان سليم الأول، ولكن حتى ذلك الحين، لم يكن ثمة تعاون عسكري مباشر بين الطرفين. وخلال السنوات الأولى من حكم السلطان سليمان لم تتخذ إجراءات عثمانية فاعلة في غربي البحر المتوسط. وعليه، من الصعب تقدير تأثير القباطنة في هذه المرحلة، لكننا نستطيع أن نستشف أن الجزائر لم تكن قد أصبحت بعد ولاية عثمانية.

كان نجاح الأخوين بربروس خلال هذه المرحلة نسبيا؛ فلم يتمكنا إلا من صد هجومين إسبانيين على الجزائر، ولم يتمكنا من مد سيطرتهما إلا على تلمسان فقط (٤٢).

وفي تلك السنة في يونيو سنة ١٥١٦ م، توفي الملك فرديناند، وبقي الكاردينال خيمينس الحاكم الفعلي لإسبانيا، وكان عليه مواجهة الأخوين بربروسا برد سريع، فبدأ يخطط لحملة بحرية للاستيلاء على

---

(٤٠) خمينيس أو Cisneros أو Francois هو كاردينال: ولد في قشتالة (١٤٣٦ – ١٥١٧ م) تم تعيينه أمينا لسر المملكة (١٤٩٢ م) ثم كاهنا لطليطلة (١٤٩٥ م) ثم حاكما لقشتالة حتى وفاة الملكة (١٥٠٤ م) ثم رئيسا لمحاكم التفتيش (١٥٠٦ – ١٥١٦ م) وفتح وهران (١٥٠٩ م) اشتهر بقسوته الوحشية في إبادة المسلمين، وكان المحرض الأساسي لاحتلال مدن المغرب في محاولة لتنصير مسلمي المغرب. انظر بسام العسيلي، مرجع سابق، ص ٤٥، ح ١.

(٤١) وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب عبد القادر زيادية، دار القصبة للنشر –، الجزائر، ٢٠٠٦ م، ص ٤٠ – ٤١؛ أنيس عبد الخالق محمود القيسي، النشاط البحري العثماني في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، رسالة دكتورا، غير منشورة، كلية الآداب، بغداد، ٢٠٠٨ م، ص ٩٢.

(٤٢) جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار، ص ٦١؛ أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ١٧٦.

الجزائر بمساعدة سلاح المدفعية في قلعة البينون. ولو أخذنا بنظر الاعتبار الولاء الضعيف لسكان المنطقة تجاه الأخوين بربروس، لأدركنا أن هذه المهمة لم تكن صعبة عليه.

وعلى الرغم من أن وجود الأخوين بربروس كان ضربة للهيبة الإسبانية في المنطقة، وتهديدا للحامية الإسبانية في الجزائر أيضا، إلا أن خيمينس لم يتمكن من التخطيط للحملة المزمعة بسبب مشكلات دفع الرواتب والتجهيزات والنقل، وهي مشكلات لا يمكن تجاهل تأثيرها السلبي في العمليات العسكرية. ومع ذلك، لم يكن الإعداد لهذه الحملة رد فعل على ترسخ وضع الأخوين بربروس في الجزائر فحسب، وإنما كان بهدف انتزاع قاعدتهما في جزيرة جربة أيضا، القاعدة المهمة الأخرى للقباطنة المسلمين. وبهذا الخصوص، كان خيمينس يرسل الرسائل إلى نائبي الملك في صقلية ونابولي، ديل فيرا (Del Vera) وديل ريو (Del Rio)، للاستعداد لشن حملة على جربة (٤٣).

وحينما تقرر شن الحملة على جربة لم يواجه الإسبان مشكلة في الحصول على المدعم المحلي من سكان المنطقة، وهو أمر طبيعي، لأن وجود الأخوين بربروس هناك لم يكن لغرض مساعدة الحكام المحليين، وإنما لتوطيد سيطرتهما الشخصية أساسا. هذا بالإضافة إلى حالة الاستياء التي أظهرها حاكم تونس سالم التومي ضد طموحات الأخوين المتصاعدة، حتى أنه لم يتردد في إرسال رسالة إلى دي فيرا في شهر أغسطس سنة ١٥١٦ م، يؤكد له فيها ولاءه لإسبانيا (٤٤)، وحينما قام عروج بإعدام سالم التومي كما أشرنا من قبل، لجأ " دي فيرا " إلى المناورات الدبلوماسية مع ابنه يحيى. ففي إحدى الرسائل أشار إلى رغبته في معاقبة قاتل والده، وطلب منه التعاون في هذه المهمة بالإضافة لتواطؤ الجزائريين أنفسهم مع الإسبان، وهذه حقيقة أكدتها حتى المصادر العربية (٤٥).

وافق يحيى بن سالم التومي على القتال ضد الأخوين بربروس بناء على رغبة الإسبان أيضا، وذلك كله يثبت تواطؤ الحكام المحليين مع الإسبان.

وصلت القوة البحرية الإسبانية إلى الجزائر في الثلاثين من سبتمبر سنة ١٥١٦ م، وكانت مكونة من ستين سفينة تحمل ثمانية آلاف جنديا، فضلا عن يحيى بن سالم التومي لكنها انتهت بكارثة على الأسبان؛ فحينما وصلوا اعتقدوا أن جنود يحيى التومي سيقاتلون معهم، لوجوده بينهم. لكن ما حصل كان العكس تماما، فحينما بدأ الجنود بإطلاق القذائف حدثت فوضى وإرباك في معسكر الأسبان (٤٦). نتيجة سوء الأحوال الجوية' فتمكن عروج من إيقاع هزيمة قاسية بالإسبان في الرابع من أكتوبر، إذ كلفتهم نحو ثلاثة آلاف قتيل وأربعمائة أسير، أما يحيى بن سالم التومي فقد اختفى ولم تسمع عنه أخبار من ذلك الحين (٤٧).

---

(٤٣) جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار، ص ٦٣، مذكرات خير الدين، ص ٢١؛ أنيس عبد الخالق محمود القيسي، مرجع سابق، ص ٩٣.

(٤٤) أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ١٧٦– ١٧٧.

(٤٥) مثال ذلك الرسالة التي أرسلها أحد شيوخ العشائر الإقطاعيين، إذ كان يرى أن امتداد النفوذ العثماني إلى الجزائر يقضي – على مصالحهم ويقوض نفوذهم. وفي هذه الرسالة حث هذا الشيخ الكاردينال الإسباني خيمينس على انتزاع الجزائر من العثمانيين قبل أن تأتي قوة النجدة، وناشده لمساعدة يحيى بن سالم التومي بعد مقتل والده. المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ١٧٥ – ١٧٦. وعن تواطؤ بعض أتباع سالم التومي، انظر الصفحات ١٧٩ – ١٨٠ تحديدا.

(٤٦) مذكرات خير الدين، ص ٤٤؛ أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص ١٨٠.

(٤٧) يشير خير الدين في مذكراته إلى الدور الحاسم للعاصفة في كلا الحملتين؛ مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص ٧٨.

نجح عروج في السيطرة على تلمسان وعلى منطقة مهمة أخرى هي قلعة بني راشد [٤٨] دون أية مقاومة مسلحة، على الرغم من ضعف قوته العسكرية التي لم تكن تتجاوز ما بين (٣٥٠ – ٤٠٠) رجل، مما يعكس ضعف دفاعات المنطقة ذاتها. وقبل كل شيء، انسحب حاكمها أبو حمو الثالث إلى القلعة الداخلية، ثم فر بعد إدراكه عدم إمكان مقاومة عروج [٤٩] الذي استولى عليها بمساعدة السكان المحليين، بعد ذلك تطلع عروج للسيطرة على واهرن، فمنع وصول الإمدادات منها إلى الحامية الإسبانية في القلعة الرئيسية.

وردا على ذلك، قام (٣٠٠) جندي من حامية وهران بمشاركة بعض المرتزقة المحليين بالتحشد لحماية القلعة وفي الوقت ذاته، أرسل عروج ثلاثة أرباع قواته إلى قلعة بني راشد بدعوى حاجتها إلى حامية أفضل، وأدى تأزم الوضع إلى زيادة قلق خير الدين في الجزائر، [٥٠] فأرسل إلى القلعة قوة نجدة بلغ قوامها ألفي رجل بقيادة أخيه الأصغر إسحق، وبقي هو في المدينة لأنه كان لا يريد لها أن تسقط حال سقوط البلاد بأسرها [٥١].

قامت القوات الإسبانية، مدعومة بقوات أبي حمو، بغزو القلعة أولا فقرر عروج إنقاذها من الإسبان، ونجح في انتزاعها منهم. بيد أن الإسبان أرسلوا قوة كبيرة أخرى ضده، بلغ قوامها، بحسب ما ذكره خير الدين، ما بين (٣٠ – ٤٠) ألف رجل (وهو رقم مبالغ به بالتأكيد). وقد منحه المهاجمون حرية المرور بأمان مقابل إخلاء القلعة، لكنهم بعد خروجه، تعقبوه وهزموه في معركة قتل فيها [٥٢].

ومهما كانت الدوافع، فلا شك أن وفاة عروج كانت ضربة موجعة لأخيه خير الدين الذي لم يكن وضعه قويا حتى في الجزائر ذاتها، لأن قواته كانت قليلة العدد. ومع ذلك لم تواصل القوات الإسبانية حملتها إلى الجزائر، وإنما عادت إلى إسبانيا.

ومع أن الملك شارل الخامس كان مسرورا بمقتل عروج، إلا أنه كان مقتنعا أن النصر لن يكون مكتملا طالما بقيت الجزائر تحت سيطرة خير الدين. وعليه أصدر أمرا بشن حملة ضد الجزائر بقيادة نائب الملك في صقلية، والقائد العام للبحر والقائد العام للجيش البحري والأراضي المفتوحة في شمالي أفريقيا هوغو دي مونكادا (Hugo de Moncada) [٥٣].

ويذكر المؤرخ التركي عزيز سامح إلتر أنه استعان بجنود متمرسين من المرسى الكبير أيضا وعندما وصل إلى الجزائر، أراد شن الهجوم بالسرعة الممكنة، ولكن المدعو غونزالو مارينو دي ريفيرا (Gonzalo Marino de Rivera) أصر على ضرورة انتظار ملك تلمسان عبد الله الثاني، الذي

---

(٤٨) قلعة مهمة بالقرب من تلمسان اتخذ منها عروج قاعدة لحماية مواصلاته وترك فيها حامية بقيادة أخيه الأصغر إسحق، وأناط بالحامية مهمة إشغال الإسبان في وهران، وإعاقة تحركاتهم العسكرية. أنيس عبد الخالق، مرجع سابق، ص ٩٦.

De Grammont (H. d); Histoire d'Alger sous la domination Turque (1515 – 1830), Emest leroux, Editeur, Paris 1887, p 25.

(٤٩) مذكرات خير الدين، مرجع سابق ص ٨٧.

(٥٠) أنيس عبد الخالق، مرجع سابق، ص ٩٦ – ٩٧.

(٥١) ذكر خير الدين أن عددهم بلغ (٢٠) ألفا من البربر، وهو رقم مبالغ به. مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص ٨٨.

(٥٢) مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص ٨٩ – ١٠٠. وذكر أحمد توفيق المدني أن القوة بلغت عشرة آلاف جنديا، وهذا الرقم أقرب إلى التصديق. حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ١٩٠.

(٥٣) مذكرات خير الدين، ص ٨٧. يحيى بو عزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ص ١٥.

سيأتي مع عدد كبير من الخيالة والمشاة العرب (٥٤)، ومع أن وجود هؤلاء الجنود لم يكن مهما في الحصار، إلا أن مشاركتهم ستكون مهمة، وربما حاسمة، في المناوشات ضد القوات المحلية في الجزائر. على هذا الأساس، قصفت القوات الإسبانية المدينة لثمانية أيام متواصلة (٥٥).

عند هذه المرحلة الحاسمة هبت عاصفة هوجاء غيرت مسار الحملة في اليوم الثامن من الهجوم، إذ عصفت رياح شمالية عاتية بالأسطول الإسباني، فقدت بنتيجتها (٢٦)سفينة وأربعة آلاف جندي (٥٦). وفوجئ الجنود الذين بقوا أحياء أحياء من السفن الغارقة بهجوم آخر، ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى (٦٠٠) جندي فقط (٥٧).

وتمكن خير الدين من إيقاع هزيمة مرة بالإسبان، وقد أوقعت تلك الهزيمة ضربة موجعة بهيبة شارل الخامس الذي كان يرى في نفسه حاميا للعقيدة المسيحية، لكن المهم أن فشل دي مونكادا قد عزز وضع خير الدين فعلا، ومهد الطريق لحملته نحو الجزء الأوسط من شمالي أفريقيا، وكانت النتيجة فتح كل من تنس (١٥٢٠ م)، وعنابة وقسنطينة (١٥٢٢ م) (٥٨).

وبذلك أصبحت الجزائر تحكم بإسم الدولة العثمانية من الناحية الأسمية منذ ذلك التاريخ وبدأ اسم السلطان سليم يذكر في خطبة صلاة الجمعة، وسكت صورته على العملة المعدنية (٥٩).

بعد هاتين الحملتين، انصرف خير الدين إلى تنظيم الوضع الإداري للجزائر، إذ قسمها على قسمين إداريين، مثلما فعل عروج قبله، فعين عليهما زعيمين محليين بدرجة والي، وهما: أحمد بن القاضي، الذي كان حليفا للأخوين مدة طويلة، فمنح القسم الشرقي بعد أن كان خير الدين يتولى إدارته؛ ومحمد بن علي، الذي عين حاكما على القسم الغربي (٦٠).

قرر خير الدين الاستقرار في جيجل بقوته البحرية المكونة من تسع سفن، ومنها بدأ بقيادة رجاله خلال العقد اللاحق، وواصل صراعه من أجل بسط نفوذه على المنطقة. (٦١). ثم ازدادت قوته على نحو كبير، بحيث أصبحت تضم (٤١) سفينة حربية، تمكنت بها قواته من تدمير سواحل غربي البحر المتوسط. وفي سنة ١٥٢٥ م أصبح قويا بما يكفي لشن حملة على الجزائر مرة أخرى، بعد أن تحالف مع منطقة القبائل، فقرر مهاجمة ابن القاضي في معركة حاسمة، تمكن بنتيجتها من إيقاع هزيمة مرة به، فأصبح

(٥٤) عزيز سامح إلتر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ص ٧٦.

(٥٥) مذكرات خير الدين، ص ٨٧. أنيس عبد الخالق محمود القيسي، مرجع سابق، ص ٩٦ – ٩٧.

(56) Jamil Abun – Nasr, op. cit, p 148 – 149.

(57) Godfrey Fisher, Barbary legend war, p 52, p.

(٥٨) عزيز سامح إلتر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ص ٣٨ – ٣٩؛ المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ٢٠٧ – ٢٠٨.

(٥٩) المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ٢٠٨.

(٦٠) انظر: مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص ٤١.

قسم خير الدين الجزائر على قسمين، شرقي وغربي: فالقسم الشرقي يشمل بلاد القبائل الجبلية ويمتد من شرقي العاصمة الجزائرية إلى حدود المملكة الحفصية بتونس. أما القسم الغربي فيمتد إلى حدود دولة بني زيان التي ليس لها حدود دقيقة. عزيز سامح إلتر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ص ٨٥ – ٨٩؛ المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ٢١١؛. جمال فنان، مرجع سابق، ص ٤٣. بسام العسيلي، مرجع سابق، ص ١٣٣.

(٦١) جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار، ص ٦٥.

حاكم الجزائر مرة أخرى، ومنها توجه إلى شرشال لمعاقبة عامله قرة حسن، لتخليه عنه وهو آمر الحامية في شرشال، ثم اتجه إلى تلمسان، حيث ضاعف الإتاوة المفروضة على عاملها [٦٢]، بعد ذلك قضى — السنوات اللاحقة بتعزيز وضعه في مدينتي تنس وقسنطينة [٦٣]، إلى جانب حملتين ضد كل من عنابة وجربة في سنة ١٥٢٧ م، وبعض العمليات المتفرقة في البحر.

التحالف العثماني مع خير الدين بربروس (١٥٢٩ – ١٥٣٤ م)

خلال الحقبة الممتدة بين سنتي (١٥٢٩ — ١٥٣٤ م) حدث تطوران مهمان مهدا الطريق لمرحلة جديدة أعيد بموجبها تحديد مكانة خير الدين في شمالي أفريقيا: أولهما نجاحه في سنة ١٥٢٩ م في إزاحة الضغط الإسباني من الجزائر عن طريق فتح قلعة البينون، الذي ارتقى بعده إلى مستوى شخصية مؤثرة في نظام توازن القوى في البحر المتوسط. أما الحدث الثاني فهو تعيينه أميرالا أعظم (قايبودان دريا) للقوة البحرية العثمانية سنة ١٥٣٤ م. وفي سنة ١٥٢٩ م، أيضا، بدأت مواجهة برية مباشرة بين الدول العثمانية وإمبراطورية آل هابسبورغ، بحصار فيينا، سبقها اجتياح الجيش العثماني لمملكة هنغاريا، الدولة العازلة بين الدولة العثمانية ودوقية النمسا، التابعة لآل هابسبورغ. وقد أثرت هذه التطورات في مصير القباطنة بطريقتين. الأولى. أن مساعدة الدولة العثمانية للقباطنة أصبحت أكثر إلحاحا مما كانت عليه في السابق؛ إذ أصبح بمقدور القباطنة إحداث مشكلات جدية لممتلكات آل هابسبورغ في جنوبي إيطاليا، وعلى امتداد السواحل الإسبانية أيضا. بمعنى آخر، أصبحوا جزءا فاعلا ومهما في الصراع بين العثمانيين وآل هابسبورغ؛ والثانية: أثبت تعيين ما كان يسمى قرصانا بسيطا، مثل خير الدين، في وظيفة مهمة مثل وظيفة الأميرال الأعظم، تنامي التطلعات العثمانية في غربي البحر المتوسط [٦٤]، فبعد أن أخفق الأسطول العثماني في مواجهة أسطول الإمبراطور الإسباني في البحر الأدرياتيكي بقيادة الأميرال الجنوي أندريا دوريا [٦٥]، تم استدعاء خير الدين إلى العاصمة العثمانية من قبل السلطان العثماني سليمان القانوني.

وفي سنة ١٥٣٥ م، أصبحت قوة القباطنة في المنطقة تشكل تهديدا حقيقيا لإمبراطورية شارل الخامس، ولا سيما حينما حولت الدولة العثمانية جهودها نحو الشرق. ومن هنا ندرك أن المسؤولين العثمانيين، وفي مقدمتهم السلطان سليمان كانوا يتصرفون بحكمة حينما أودعوا قيادة الأسطول العثماني إلى رجل له سمعة كبيرة وأوعزوا إليه بمواصلة عملياته في غربي البحر المتوسط أيضا. ففي الوقت الذي كانت فيه

---

(٦٢) المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ٢١١؛ بسام العسيلي، مرجع سابق، ص ١١٥ – ١١٨.

(٦٣) أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الأول، ص ٢٤٤ – ٢٤٥.

(٦٤) رضا سيفي، بارباروس خير الدين، ص ١٤٨ — ١٥١؛ مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص ٢٠.
Charles – André Julien, Histoire de l' Afrique du Nord, Payot, Paris, 1931, p. 521.

(٦٥) ولد اندريا دوريا سنة ١٤٩٨ م وهو من أولاد عائلة تعود بأصلها إلى جنوة، وفي شبابه عمل حارسا لدى البابا، وبمساعدة (دوج داور بينو) و (الفونس دي نابولي) تعلم فن الحروب والمغامرات البحرية، وعندما بلغ سن الأربعين التحق بالبحرية وأظهر براعة فائقة، فأصبح قائدا للأسطول الجنوي سنة ١٥١٣ م ولدى حدوث انقلاب من جنوة، ضايقه أعداءه، فقرر الالتحاق بالأسطول الفرنسي، وبفضل مهارته البحرية وخبرته، سجل الأسطول الفرنييي عدة انتصارات على الأسطول الإسباني، ولدى تخلص جنوة من الظلم والاستبداد عاد إليها، فكلفه الملك بحكمها، لكنه رفض وقبل منه فقط لقب أميرال البحر، وقد مارس أندريا دوريا القرصنة على حسابه الشخصي –، كان أندريا دوريا قد بنى أسطولا كبيرا، واشترك في مساعدة فرسان القديس يوحنا للاستقرار في طرابلس الغرب ومالطا سنة ١٥٣٠ م، لتوفير قواعد للتحرك في شرقي البحر المتوسط. وجمع أموالا كثيرة من جراء ممارسته للقرصنة، يعتبر أندريا دوريا أول بحار في العالم المسيحي. انظر، عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ص ٩٤، ح ١.

الجيوش العثمانية منشغلة بحملات الشرق، كان أسطولها الذي بناه خير الدين قد حقق انتصارا سريعا على حاكم تونس، وفتح المدينة.

كانت هذه اللحظة أهم لحظة للقباطنة، إذ كان الموقع الجغرافي لتونس يشكل تهديدا ضد ممتلكات آل هابسبورغ أكبر من أي تهديد تشكله المدن أخرى في شمالي أفريقيا. فهي قريبة من صقلية ومن السواحل الجنوبية لإيطاليا، إلى جانب قربها من مالطا، الذراع القوية لإمبراطورية آل هابسبورغ في منتصف البحر المتوسط، والقاعدة التي يمكن أن تنطلق منها العمليات البحرية العثمانية ضد المناطق الغربية في البحر المتوسط، والسواحل الجنوبية لإسبانيا. ذلك كله حدا بشارل الخامس إلى التفكير بشن حملة لاحتلالها، تكون بقيادته شخصيا، على الرغم من معارضة مستشاريه. وقد أوضحت خططه اللاحقة نياته وتطلعاته البعيدة تجاه هذه المنطقة.

كان خير الدين برباروس قد قرر مسبقا مهاجمة قلعة البينون (٦٦) في السادس من مايو سنة ١٥٢٩ م عندما رفض آمرها مارتن دي فيرغاس (Martin de Vargas) تسليمها لخير الدين في ذلك الوقت كان وضع شارل الخامس أفضل نسبيا بسبب تحالفه مع أندريا دوريا الذي خفف بعض الضغط عليه في السواحل الغربية للبحر المتوسط. ولكن تنظيم مقاومة قوية ضد الدولة العثمانية، التي كانت تحاصر فيينا، لم يكن مهمة سهلة، فضلا عن أن حملة أندريا دوريا المزمعة ضد قلعة البينون لم تتحقق، فسقطت بأيدي العثمانيين في السابع والعشرين من مايو (٦٧). وبهذا أزال خير الدين الخطر الإنساني عن مدينة الجزائر، وأضاف ميناء جديدا لأسطوله، ولقوته البحرية، فضلا عن أنه عزز وضعه لا بين سكان الجزائر فحسب، وإنما بين القباطنة في المنطقة أيضا. فبعد هذا الانتصار بدأوا بالعمل تحت إمرته، ليصبح قطب القوة العثمانية في غربي البحر المتوسط (٦٨).

أدت الانتصارات البحرية المتلاحقة للعثمانيين إلى انتشار حالة من الهلع في إسبانيا؛ أن خطر خير الدين قد تنامى على نحو أقوى مما كان عليه في أي وقت مضى بفضل السفن التي غنمها من الإسبان، وإن نشاطات القراصنة الآخرين الملتفين حول رأيته ليست أقل من خطره هو. لقد كانت الهزيمة كارثة بحق، وهي أكبر إشارة وأشهر انتصار حققه برباروس علي الإسبان في المعركة، إن لم تكن أكبر هزيمة يتعرض لها الإسبان في حرب القوادس (٦٩).

---

(٦٦) قلعة البنيون: هي قلعة على شكل مثمن ومحصنة بحصنين تقع على الجزر المقابلة لمدينة الجزائر على بعد ٣٠٠ متر منها، تم بنائها عام ١٥١٠ م بناء على أمر من القائد الإسباني " بدرونافارو " موجها لسالم التومي حاكم الجزائر، وترجع أهمية هذا الحصن هي مراقبة كل ما يجري من تحركات في البحر دون انقطاع واحباط كل محاولات السيطرة على مدينة الجزائر من جهتها البحرية، وكان من مهام هذا الحصن المنيع اجبار سكان مدينة الجزائر على احترام من في الحصن، ومنع القراصنة من استعمال الميناء كملجأ، وكما يذكر بأن هذا الحصن كان شوكة في قلب كل جزائري. انظر: كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (١٥١٠ – ١٥٤١) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٨، ص ٢٤ – ٢٥.

Shaw, History of the Ottoman Empire, I, p. 97.

(٦٧) جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار، ص ٧٠.

(68) Albert Prieur, les Barbarousses, Corsaires etrois D'Alger, Edition ARC – encie, Paris, S. D. p. 111.

(69) Fisher, The Barbary Legend, 59.

الحرب الإسبانية على شرشال سنة ١٥٣١ م:

وفي سنة ١٥٣٠ م توجه أندريا دوريا إلى شرشال لإطلاق سراح الأسرى المسيحيين فيها. وبلغ عدد الجنود العثمانيين الذين انسحبوا إلى القلعة الداخلية (٥٠٠) رجل، بعد أن تركوا المدينة مجردة من الدفاعات، فدخلها أندريا دوريا وتمكن من تخليص ألف أسير مسيحي، واستولى على تسع سفن للقباطنة (٧٠) ثم قام العثمانيون بهجوم مقابل أجبر أندريا دوريا على الفرار، بعد أن ترك (٣١٤) جنديا بأيدي القباطنة العثمانيين، وقرر هو العودة إلى جنوا محملا بالغنائم. أما خير الدين، فبعد تلقيه الأخبار الأخيرة، ظل ينتظر الأسطول العثماني في جزيرة بروزة، حيث كان يتوقع عودة أسطول دوريا من أجل إعادة تجهيز قوادسه، بيد أن دوريا فضل العودة إلى جنوا (٧١). تاركا ستمائة أسير في قبضة الجزائريين، أما خير الدين فقد حل بشرشال وتمكن من الاستيلاء على سفينتين محملتين بالأسلحة والمؤن تابعتين لأسطول دوريا (٧٢).

وعندما علم السلطان العثماني سليمان القانوني بوقائع انتصار خير الدين على الإسبان، قرر استدعاء خير الدين إلى اسطانبول، وبالفعل تلقى خير الدين رسالة من السلطان سليمان عن طريق سنان آغا، فغادر الجزائر في أغسطس سنة ١٥٣٣ م برفقة مولاي رشيد، أخو حاكم تونس، وترك إدارة البلاد لابنه حسن، مع حامية مكونة من أربعة آلاف جندي (٧٣). وعند وصوله العاصمة العثمانية اسطنبول استقبل استقبالا مهيبا، وقابل السلطان وقدم له بعض الهدايا في التاسع والعشرين من نوفمبر ١٥٣٣ م، بالمقابل منحه السلطان (٢٠) ألف أقجة (٧٤)، وحلة شرف، وعينه أميرالا أعظم للقوة البحرية العثمانية وحاكما عاما (بايلربايا) على الجزائر أيضا (٧٥).

في هذا الوقت كان الصدر الأعظم إبراهيم باشا في حلب، وكان خير الدين أن يلتقيه هناك وفي يناير سنة ١٥٣٤، وصل إلى وجهته، ثم عاد إلى اسطنبول مجددا للإشراف على تجهيز الأسطول الجديد لمواجهة آل هابسبورغ (٧٦).

كانت أهداف الدولة العثمانية في التحالف مع خير الدين واضحة، إذ أن قوتها البحرية لم تكن قوية بما يكفي لمجابهة العدو في تلك المرحلة وفي مناطق غربي البحر المتوسط تحديدا، لذلك فكر السلطان

---

(٧٠) يذكر أحمد توفيق المدني إن الإعداد لهذه الحملة كان في جنوا منذ سنة ١٥٣٠ م. ولكن الأسطول غادر السواحل الإيطالية في يونيو سنة ١٥٣١ م متوجها نحو الساحل الجزائري. حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ٢٢٢؛ مذكرات خير الدين، ص ٤٦.

(٧١) مذكرات خير الدين، ص ٤٦.

(72) Stanly Lane – Poole, The Story of Barbary Corsairs, p 50. De Grammont, opcit, p 26.

(٧٣) مذكرات خير الدين، ص ١٦٢؛ علي رضا، مرآة الجزائر، ص ١٩؛ ويذكر أحمد توفيق المدني أنه ترك نائبه وممثله في الجزائر، واسمه محمد حسن آغا، وهو من الحكام الحفصيين ، وليس ابنة حسن؛ انظر: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ٢٢٩، ٣٢١.

(٧٤) الأقجة: كلمة أق التركية تعني أبيض اللون، وهي تعني السكة البيضاء، ضربت هذه السكة لأول مرة في عهد السلطان أورخان في بروصة عام ٧٢٩ هـ / ١٣٣٨ م، وكان وزنها ربع مثقال أي ستة قراريط و ١١٥٤ جراما وعيارها تسعون بالمائة، وكان الدرهم الواحد يساوي خمس أقجات من العملة المضروبة في عهد كل من سليم الأول وسليمان القانوني، أي أن كل أقجة تساوي ٣٥ قيراط، وقد كثر غش الأقجة ونقص وزنها في اليمن ومصر، وكان الهدف من ذلك الكسب، وقد أطلق عليها الجبرتي في كتبه الأخشا أو الأفشا؛ انظر مصطفى بن الحاج ابراهيم، تاريخ وقايع مصر القاهرة المحروسة كنانة الله في أرضه، ص ٦٢، ح ٥.

(٧٥) أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص ٢٢٩ – ٢٣١.

(76) Shaw, History of the Ottoman Empire, p 116 - 118.

العثماني سليمان القانوني في التعاون مع خير الدين لخبرته بالشؤون البحرية، ولإدراكهم أن التحالف معه سيكون مفيدا لتعزيز القوات البحرية للدولة، لا سيما في الأجزاء الوسطى والغربية من البحر المتوسط. وقد أثبتت هجمات أندريا دوريا سنة ١٥٣٢ م أن القوة البحرية العثمانية بحاجة إلى إصلاح وإلى قباطنة مقتدرين، من أجل التغلب على العدو، وكان لدى خير الدين القدرة للقيام بكلتا المهتمين. على هذا الأساس، تم استدعاؤه إلى العاصمة العثمانية ومنح المنصب، لأنه الشخص الوحيد المؤهل لحماية البحر بأكمله، ولفتح الجزائر والمناطق المجاورة لها (٧٧).

في فبراير سنة ١٥٣١ م، أرسل خير الدين هدايا إلى السلطان الذي كلفه بقيادة البحرية العثمانية في غربي البحر المتوسط، وأمره بعدم مهاجمة البنادقة أيضا (٧٨). فبهذه الترقية أصبحت الجزائر جزءا من الدولة العثمانية بمستوى أكثر مما كان عليه الحال في سنة ١٥١٩ م، كما أصبح القباطنة جزءا من النظام الإداري العثماني. ولم يعد خير الدين مجرد قرصان بسيط في العمليات البحرية، وإنما أصبح جزءا من الطاقم الإداري العثماني، وأخذ يمارس دورا في الصراع بين الدولة العثمانية وإمبراطورية آل هابسبورغ خلال ذروة الصراع البحري في القرن السادس عشر (٧٩).

حملات خير الدين على تونس وبروزة والجزائر (١٥٣٤ – ١٥٤١ م):

أدى تشجيع السلطان العثماني سليمان القانوني لخير الدين وقوته البحرية إلى القيام بالمزيد من الفتوحات. وأثناء ذلك، كان خير الدين يقضي شتاء سنة ١٥٣٤ م في دور صناعة السفن بإسطنبول لتهيئة الأسطول العثماني للحملة المزمع شنها على تونس. وفي الأول من أغسطس غادر العاصمة بأسطوله الجديد المكون من (١٠٠) سفينة و (٢٤) ألف رجل (٨٠).

في البداية هاجم خير الدين السواحل الإيطالية للتمويه عن الهدف الحقيقي لحملته ودمر سان لوجيدو أولا، وأسر معظم سكانها تقريبا، ثم توجه إلى كتارو (ألبانيا) بعد أن بلغته أنباء بناء قوادس فيها. لكنه بعد أن وجد المدينة مهجورة، أحرق السفن الإسبانية الست الموجودة فيها، ومن هناك وصل إلى البحر التيراني، فشن غارة على خليج نابولي ودمره، ثم توجه إلى سيبيرلونكا، ومنها إلى مدينة فوندي الإيطالية. وخلال هجومه عليها حصلت حادثة دفعت إيطاليا، من بين أسباب أخرى، إلى التخلي عن هدنتها مع الدولة العثمانية، لتدخل في حرب معها بعد سلام دام ثلاثة عقود ونصف العقد (٨١). وتوجه خير الدين إلى تونس بعد ذلك وكانت نيته تضليل خصومه عن هدفه الحقيقي.

ظهر الأسطول العثماني أمام ميناء بيزرتة التونسي، في الخامس عشر من أغسطس سنة ١٥٣٤ م فاستسلم الميناء دون مقاومة، وكان خير الدين موضع ترحيب فيه. وبعد أسبوع واحد دخل

(٧٧) مولاي بلحميسي " غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م بين المصادر الإسلامية والمصادر الغربية " مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، العدد ٨، مايو ١٩٧٢ م، ص ٩٦.

(٧٨) جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار، ص ٦٧.

(79) Shaw, History of the Ottoman Empire, p 119.

(٨٠) مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص ١٧٠؛ عزيز سامح ألتر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ص ٤٧ – ٤٨.

(٨١) مذكرات خير الدين، ص ٧٠. أنيس عبد الخالق محمود القيسي، مرجع سابق، ص ١١٤ – ١١٥.

مدينة تونس، إذ كان الناس متحمسين لوصول الرشيد بن محمد (٨٢)، الذي وعد خير الدين بتنصيبه على العرش بدلا من أخيه مولاي الحسن، المتواطئ مع الإسبان. بيد أن خير الدين كان قد أخذ الرشيد إلى إسطنبول وتركه هناك. وعندما أدرك التونسيون أنهم خدعوا، رفعوا السلاح ضد خير الدين وأرسلوا مبعوثا إلى مولاي حسن نفسه الذي انضم إلى الثوار أيضا، فوجد خير الدين نفسه محاصرا، وقرر مواجهة الوضع، ونجح في قمع العصيان الذي راح ضحيته نحو ثلاثة آلاف شخص، وما بين (٥ – ٦) آلاف جريح (٨٣). وأخيرا، قبل سكان تونس سيادة خير الدين بإسم السلطان العثماني، مقابل وعد بإعادة تنصيب الرشيد بأسرع ما يمكن. وهكذا ألحقت تونس بالدولة العثمانية، لتكون سببا لحرب مقبلة بين العثمانيين وآل هابسبورغ من أجل السيطرة على الجزء الأوسط من البحر المتوسط (٨٤).

كان الفتح العثماني لتونس ضربة للهيبة الإسبانية في المنطقة، بحيث فكر شارل الخامس بقيادة حملة لاحتلالها مجددا بقيادته شخصيا وكان اهتمامه الشخصي بها نابعا من عدة دوافع، في مقدمتها قربها من ممتلكات آل هابسبورغ في جنوبي إيطالي (٨٥).

درس شارل الخامس خطة الحملة على تونس بتأن، لأنه كان لا يريد أن تتكرر تجربته المرة في الجزائر. بدأ شارل الخامس استعداداته بأسرع ما يمكن، وأرسل رسائل إلى حليفه الأميرال الجنوي أندريا دوريا، وإلى نائبه في صقلية بيدور الطليطلي (Pedro de Toledo) كما راسل كلا من البابا كليمن السابع وفرانسوا الأول يطلب منهما المشاركة بأقصى – قدر من السرعة والاستعداد. وطلب من الثاني تحديدا، تجهيزه بستة قوادس، وإيقاف تعاونه مع خير الدين، وأن يعلن صراحة أن خير الدين عدوه أيضا. وقد رفض الملك الفرنسي كلا الطلبين، في حين وافق البابا على تقديم (١٢) قادسا، وربع الفوائد من عوائد الكنيسة (٨٦).

أما قوة خير الدين فقد كان من الصعب تقديرها، إذ كان العدد الإجمالي لقواته قبل مغادرته إسطنبول (٢٤) ألف جنديا. ولكن هذا العدد تناقص تدريجيا لهروب أعداد كبيرة من المقاتلين. ويشير ساندوفال إلى أن قوته كانت مكونة من سبعة آلاف تركي، و (٨٠٠) إنكشاري، وسبعة آلاف قواس، وعدد مماثل من رماة الرماح، و (٨٠٠) خيال عربي من تونس، وحامية مكونة من ألف جندي في حلق الوادي مرسى مدينة تونس (٨٧).

وقد واجه خير الدين الجيش المسيحي بعد فتح حلق الوادي بـ (٧,٢٠٠) مقاتل، بعد أن فقد (٢,٥٠٠) شهيدا، أي أن العدد الإجمالي لقوته كان (٩,٧٠٠) مقاتل في المرحلة الأخيرة من الحرب (٨٨).

---

(٨٢) الرشيد بن محمد: هو ابن سلطان تونس محمد بن الحسن الحفصي، اتسم بحسن السيرة خلافا لأخيه الحسن بن محمد، فحظي بتقدير السكان، ولجأ إلى خير الدين لمساعدته في القتال ضد أخيه. للتفاصيل: انظر، فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي: دراسة تاريخية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصرا (مطلع العهد العثماني – أواسط القرن التاسع عشر)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧ م، ص ٥٧٦.

(٨٣) أنيس عبد الخالق محمود القيسي، مرجع سابق، ص ١٢٠.

(٨٤) مذكرات خير الدين، ص ٦٩.

(٨٥) جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار، ص ٧٥. بسام العسيلي، مرجع سابق، ص ١٢٩ – ١٣٥.

(٨٦) أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص ٢٣١.

(٨٧) أنيس عبد الخالق محمود القيسي، مرجع سابق، ص ١٢١.

(٨٨) أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص ٢٣١؛ بسام العسيلي، مرجع سابق، ص ١٣٧.

غادر الأسطول المسيحي برشلونة في الثلاثين من مايو سنة ١٥٣٥ م، ووصل مدينة قرطاجة القديمة في السادس عشر من يونيو، ونزل الجنود من متون سفنهم في اليوم اللاحق، وكان احتلال قلعة حلق الوادي الهدف الرئيس للحملة قبل التوجه لاحتلال تونس. ولكن قوات خير الدين تمكنت من إعاقة تقدم القوات الإسبانية والقوات المتحالفة معها، ولكنها لم تحرز نجاحا كبيرا. ومع ذلك، إضطر شارل الخامس إلى تحويل وجهته إلى تونس، أما قلعة حلق الوادي فقد تراجعت أهميتها في حساباته. وفي تونس نجح قائدان من قادة التحالف المسيحي في فتح بوابات المدينة، وإطلاق سراح ستة آلاف أسير مسيحي، وتمكنوا من إثارتهم ضد خير الدين، بدعوى أنه كان يعتزم إحراقهم أحياء، ونتيجة لذلك، نجح السجناء في السيطرة على برج العيون، مما أضعف موقف خير الدين، الذي فقد جزءا كبيرا من قواته، فقرر مغادرة تونس متوجها إلى عنابة مع ما تبقى من جنوده وقادته (٨٩).

لم يبق أمام سكان تونس سوى التفاوض مع شارل الخامس لمنع استباحة المدينة، فطلبوا منه مهلة ساعتين لئلا يدخلها أحد، ثم عرضوا مبلغ (٥٠) ألف دوكة لمنع نهبها. بيد أن الجنود الإسبان تمكنوا من الحصول على تصريح باستباحة المدينة، بدعوى أن ذلك حقهم الطبيعي ومكافأة لهم على مجهودهم في الوقوف في وجه خير الدين وجيشه (٩٠).

وفي الحادي والعشرين من يوليو سنة ١٥٣٥ م دخل الجيش المسيحي إلى تونس واستباحها (٩١) فنهبت المدينة بوحشية، بوحشية، وأحرقت حتى مكتبة حليفهم مولاي الحسن بن محمد (٩٢). وفي السادس من أغسطس عقد شارل الخامس إتفاقية بشروط قاسية مع مولاي حسن، اشترط فيها عليه أن يتخلى له عن حقوقه الشرعية في مدن عنابة وبيزرتة وتونس والمدن الأخرى التي كانت تحت حكم الحفصيين. كما نصت الاتفاقية على تسليم حصن حلق الوادي، كما فرض عليه أن لا يستقبل هو وخلفاؤه، أعداء الإمبراطور لا في الشواطئ ولا في الأراضي، وأن لا يقبلوا الموريسكيين القادمين من إسبانيا، وأن يدفع له (١٢) ألف دوكة ذهبية على دفعتين (٩٣). يضاف إلى ذلك، أن هذه الحملة كانت مشبعة بالروح الصليبية، وكانت ذات نتائج مهمة لصالح العالم المسيحي. فبعد أن تم إطلاق سراح الأسرى المسيحيين في المدينة، وتأمين عودتهم إلى أوروبا، نصت الاتفاقية ذاتها على امتناع مولاي حسن أو من يخلفه، في أخذ الأسرى من الأراضي التابعة للإمبراطور وأخيه فرديناند، وأن يسمح بإقامة كنيسة في تونس، وأن يتمكن المسيحيون من ممارسة دينهم سليما. وكانت هناك فقرات ذات أهمية ثانوية تخص تنظيم وضع المسيحيين في تونس وحقوقهم بالتجارة (٩٤).

أثبتت الحملة الاسبانية على تونس لسنة ١٥٣٥ م نيات شارل الخامس وخططه في المنطقة، كما بينت اهتمامه بهذا المعبر البحري المهم. وهذا وحده يمكن أن يفسر سبب قيادته الحملة شخصيا في وقت

---

(٨٩) مولاي بلحميسي، غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م بين المصادر الإسلامية والمصادر الغربية ص ٩٧؛ فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، ص ٥٧٧.

(٩٠) مولاي بلحميسي، مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٩١) المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ٢٣٤.

(٩٢) المدني، نفسه، ص ٢٣٢ – ٢٣٣.

(٩٣) عن نص معاهدة التبعية التي وقعت بين مولاي الحسن بن محمد والإسبان: المدني، نفسه، ص ٢٥٧ – ٢٦١.

(٩٤) بسام العسيلي، مرجع سابق، ص ١٣٧.

كان فيه مستشاروه يحاولون إقناعه بالعدول عنها (٩٥). على أية حال، لم يتمكن شارل الخامس من شن حملة أخرى على المنطقة حتى سنة ١٥٤١ م. وقد تسبب هذا الانقطاع في مهاجمة السواحل التابعة لإمبراطورية آل هابسبورغ، إذ تمكنت أساطيل خير الدين من الوصول إلى السواحل الإيطالية بسهولة، وشن الغارات في الأجزاء الغربية من البحر المتوسط مجددا.

قرر العثمانيون مهاجمة الموانئ الإيطالية، ردا على قيام بعض القوادس البندقية بمهاجمة سفينة تحمل بعثة دبلوماسية عثمانية (٩٦). وعلى الرغم من إنها ليست المرة الأولى التي تهاجم فيها سفن بندقية سفنا عثمانية، وأن الأمور كانت تعالج سليما في كل مرة، إلا أن السلطان سليمان نفسه هو الذي كان يريد الحرب هذه المرة (٩٧).

على هذا الأساس، قررت البندقية بالتعاون مع إمبراطورية آل هابسبورغ، وبتحريض من البابوية، تشكيل حلف مقدس لشن حرب صليبية ضد العثمانيين (٩٨). وتمت الاستعدادات اللازمة لذلك الحلف، إذ تم استئجار (٢٠٠) قادس، قادس، وعدد مماثل من الصنوف الأخرى من السفن، كما تم تسليح (٥٠) ألف جندي (٩٩)، وأسندت القيادة العليا لهذه القوة إلى أندريا دوريا (١٠٠).

كان من الممكن أن يؤدي هذا التحالف إلى تحقيق انتصار مسيحي ساحق على الأسطول العثماني، لولا انعدام الرؤية الواضحة لدى الأطراف المتحالفة لما ستؤول إليه نتائج الانتصار في حال حصوله. فإذا كانت إرادة الانتصار موجودة لدى البابا بول الثالث (Paul III) (١٥٣٤–١٥٤٩م) أشد المتحمسين لمحاربة العثمانيين، فإنها كانت مشوبة بالحذر لدى البندقية، ومنعدمة تقريبا لدى شارل الخامس، الذي كان يرى أن نتائج الانتصار في حال حدوثه، ستؤول للبندقية وحدها (١٠١). فإن المفاوضات التي كان يجريها مع خير الدين سرا لم تفض إلى نتيجة (١٠٢)، فأصيب بخيبة أمل كبيرة وهدر وهدر وقته.

وفي الوقت الذي كان يحاول فيه كسب ولاء خير الدين بالمال، طلب منه خير الدين سواحل شمالي أفريقيا كلها، بينما عرض له شارل الخامس كلا من عنابة وطرابلس وبجابة لا غير، شريطة تسليم

---

(٩٥) فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، ص ٥٧٩.

(٩٦) لا تحدد المصادر المتاحة لدينا التاريخ الدقيق لهذا الاعتداء، لكن يبدو أنه كان في أوائل سنة ١٥٣٧ م. عن ذلك أنظر، جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار، ص ٧٠؛

(٩٧) مولاي بلحميسي، مرجع سابق، ص ٩٩.

(٩٨) يرى بعض المؤرخين، وفي مقدمتهم أندريه كلو، إن التغير في موقف إيطاليا كان بسبب استيائها من التقارب بين الدولة العثمانية وفرنسا، الذي وضع حدا لهيمنتها على الجزء الشرقي من البحر المتوسط، إذ بات على كل من يرغب في ممارسة التجارة في شرقي البحر المتوسط أن يضع نفسه تحت حماية العلم الفرنسي بموجب معاهدة الإمتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لفرنسا سنة ١٥٣٥ م. وهذا يعني أن النفوذ السياسي والاقتصادي للفرنسيين سيتصاعد على حساب نفوذ البندقية، التي شكل لها هذا التطور نهاية عهد هيمنتها على البحر المتوسط. كلو، غازي الغزاة سليمان القانوني، دار الجبل، بيروت، ١٩٩١ م، ص ١٤٠.

(٩٩) هذا ما ذكره أندريه كلو، غازي الغزاة سليمان القانوني، ص ١٤٢.

(١٠٠) أنيس عبد الخالق محمود القيسي، مرجع سابق، ص ١٢٧.

(١٠١) مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص ١٩٤.

(١٠٢) أشار خير الدين إلى هذه المفاوضات، فذكر أن شارل الخامس حاول إقناعه بالتخلي عن خدمة السلطان مقابل تنصيبه ملكا وحيدا في البلاد التي يسيطر عليها. ويؤكد خير الدين أنه أبلغ الديوان الهمايوني بخطة شارل الخامس، وأوحى للملك شارل الخامس بموافقته المبدئية على إجراء المفاوضات للمماطلة وكسب الوقت. مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص ١٩٣ – ١٩٧.

أسطوله له وتدمير أسطول السلطان سليمان (١٠٣). واستمرت المفاوضات سنوات، لم يتوصل الطرفان خلالها إلى نتيجة، وأدرك الإمبراطور، بعد أن أهدر جهده ووقته، أن لا أمل يرجى من ذلك القرصان، وأن خير الدين كان يماطل من أجل تعزيز قوته لينقض على أساطيله في الوقت المناسب.

معركة بروزة:

في الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٣٨ م، قرر قادة التحالف المقدس الأوروبي شن الهجوم على الأسطول العثماني. وبدأ الهجوم بغارة على قلعة بروزة، مما أثار انتباه خير الدين الذي جاء بـــ (٢٢) سفينة فقط لمواجهة أسطول أندريا دوريا المكون من (٨١) سفينة بندقية، و (٣٦) قادسا بابويا، و (٥٠) قادسا إسبانيا. وبعد أن التحم الطرفان في معركة ذكر المؤرخ الفرنسي أندريه كلو أنها جرت على درجة كبيرة من الغموض (١٠٤)، كان من المتوقع أن يدمر الأسطول العثماني تدميرا ساحقا لقلة عدد سفنه. إلا أن العكس حدث تماما، فقد انصرف الأسطول العثماني بوحدات تكاد تكون سليمة بعد أن أوقع بأسطول التحالف هزيمة نكراء (١٠٥).

أنه عندما علم بنية الهجوم، أعاد قسما من أسطوله إلى البحر الأدرياتيكي، ثم انقض فجأة على أسطول التحالف، أمام بروزة، بمناورة عسكرية ذكية (١٠٦). أما خطة قادة سفن التحالف فقد كانت تقضي بالهجوم مرة واحدة على الأسطول العثماني. في هذه الأثناء، وقبيل بدء الاشتباك الفعلي، انفجرت سفينتان تابعتان للبندقية، وتمكن خير الدين من الاستيلاء على مركبين إسبانيين ومركبين آخرين، أحدهما للبندقية والآخر للبابا، مما أصاب أندريا دوريا بالإحباط قبل بدء الهجوم، ففضل الانسحاب في جنح الظلام وعدم مهاجمة الأسطول العثماني.

كانت معركة بروزة كارثة على دول التحالف المسيحي، أكبر من الكارثة التي ستحل بالعثمانيين في معركة ليبانتو بعد ثلاث وثلاثين سنة. فحينما انتهت تقدمت البندقية بعروض للصلح، بمساندة الملك الفرنسي إلى السلطان سليمان، الذي أوضح أنه يفعل ذلك من باب التسامح ليس إلا (١٠٧). وبهذا تهدد الأمن المشترك للعالم المسيحي في البحر المتوسط على نحو خطير؛ فالعثمانيون لن يهجموا فحسب، بل سيذهبوا إلى أبعد من مالطا وصقلية. إزاء ذلك. انكفأت القوة البحرية المسيحية إلى وضع دفاعي ضعيف، لكنه مكلف من الناحية الاستراتيجية.

أخيرا، في العشرين من أكتوبر سنة ١٥٤٠ م، خضعت البندقية للعثمانيين، بعد مفاوضات مطولة استمرت ثلاثة شهور، وافقت بموجبها على دفع (٣٠٠) ألف دوكة تعويضا عن أضرار الحرب، كما تخلت عن كل الجزر التي انتزعت منها في المورة، واعترفت بفتوحات خير الدين كلها في بحر إيجة في الدول العثمانية، مقابل موافقة العثمانيين على استمرار حكمها في كريت وقبرص، واستعادة امتيازاتها التجارية (١٠٨).

(١٠٣) أنيس عبد الخالق محمود القيسي، مرجع سابق، ص ١٢٧.

(١٠٤) كلو، غازي الغزاة سليمان القانوني، ص ١٤٣.

(١٠٥) مذكرات خير الدين، مرجع سابق، و ص ١٨٦ – ١٨٨.

(١٠٦) مذكرات خير الدين، ص ١٨٨؛

(107) Shaw, History of the Ottoman Empire, I, p. 99.

(108) Ibd.

بعد هذه النتيجة، أخذ المد الإسلامي يجتاح المناطق الممتدة على طول الساحل الشمالي للبحر المتوسط حتى وصل إلى أشبيلية، وبات من الواضح أن الإخطبوط العثماني سيجتاح البحر المتوسط برمته بعد القضاء على القوة البندقية، وبات العالم المسيحي في حالة دفاع أكثر من أي وقت مضى، وكان على إسبانيا أن تتخذ الاستعدادت الدفاعية لمواجهة هذه التطورات.

في السواحل الجنوبية الإيطالية، ولا سيما في نابولي وصقلية؛ وأخيرا استمرار إسبانيا بالدفاع عن سواحلها الشرقية عن طريق تنظيم وحدات لخفر السواحل في بلنسية وما جاورها. ومن ذلك ندرك أن خطة الدفاع الإسبانية كانت تقضي بإبقاء العثمانيين في الأجزاء الشرقية من البحر المتوسط، وإن المنطقة الممتدة من صقلية باتجاه تونس، كانت تمثل حدا بحريا استراتيجيا لإمبراطورية آل هابيبورغ، وخطا أحمر لا يسمح للعثمانيين بتجاوزه. وتعزيزا لهذه الاستراتيجية، فكر الإمبراطور بتوجيه ضربة بحرية للعثمانيين تصرف أنظارهم عن التفكير بالمزيد من التوسع غربا، وتقرر أن تكون الجزائر هدفا لهذه الضربة.

حشد الإمبراطور جيوشه والأساطيل في حملة أراد لها أن تكون هجوم المسيحية على الإسلام. ولكن هذه الحملة لم تحظ بالتأييد اللازم. يذكر أندريه كلو أن البابا بول الثالث حاول إقناعه بالعدول عن شن حملته (١٠٩)، وشاطره الرأي أندريا دوريا. وعبثا كرر الملك فرديناند الأول القول لأخيه شارل أن الخطر العثماني محدق، أكثر من أي وقت مضى، ببلاد المجر وفيينا. لكن كلامه لم يجد نفعا، فقد كان شارل مصمما على شن الحملة. وما أن حلت نهاية أغسطس سنة ١٥٤١ م حتى أبحر باتجاه مايورقة، حيث احتشد كامل أسطوله: (٢٠٠) سفينة محملة بالجنود من ألمانيا وإيطاليا، و (١٥٠) سفينة أخرى محملة بجنود إسبان من صقلية ونابولي، و (٢٠٠) سفينة قادمة من إسبانيا تحمل المدافع والعتاد والمعدات، ونحو ألف رجل ما بين مشاة وفرسان. بالإجمال، فقد بلغ قوام الحملة أكثر من (٥٠٠) سفينة تحمل على متونها نحو (٢٤) ألف جنديا و (١٢) ألف بحارا (١١٠). ووكلت بأندريا دوريا قيادة الأسطول البحري، بينما تولى دوق ألبا قيادة القوات البرية. أما مدينة الجزائر فلم يكن فيها سوى (٨٠٠) جندي عثماني وخمسة آلاف من البربر بقيادة محمد حسن آغا، الذي بقي يدافع عن المدينة بدلا من خير الدين الذي كان في العاصمة العثمانية. إزاء هذه القوة العثمانية المتواضعة، كان من المفترض أن تكون حملة الإمبراطور نزهة، ولكنها تحولت إلى كارثة كبرى هزت العالم المسيحي. فكيف يمكننا تفسير الهزيمة المسيحية في الجزائر؟

لقد اساء قادة التحالف المسيحي اختيار المكان المناسب للنزول (١١١). وعلى الرغم من وجود شاطيء إلى الشرق من المدينة بعض الشيء، كان سيحمي الأسطول من الرياح والأمواج، فإن قادة التحالف المسيحي اختاروا مكانا أقرب إلى المدينة، وكان عرضة لعواصف البحر. وبالفعل، فقد هبت منذ

(١٠٩) كلو، غازي الغزاة سليمان القانوني، ص ١٤٦.

(١١٠) كلو، غازي الغزاة سليمان القانوني، ص ١٤٧؛ ويذكر، أحمد توفيق المدني أن المعركة جرت بين يوم الأحد، الثالث والعشرين من أكتوبر، ويوم الخميس، الثالث من نوفمبر سنة ١٥٤١ م. حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ٢٨١ - ٢٩٤.

(١١١) كان الأسطول المسيحي قد انطلق من مرسى ماهون في الثامن عشر من أكتوبر سنة ١٥٤١ م، ووصل إلى الجزائر في العشرين من الشهر ذاته، وبدأ بإنزال جنوده بين الثالث والعشرين والخامس والعشرين من الشهر ذاته في منطقة وادي الحراش. المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ٢٨٢.

البداية عاصفة أرغمتهم على التأخير في النزول. وعندما نزلوا تعرقل زحفهم، بسبب وجود الروابي والمرتفعات التي لم تكن بحسبانهم. وفي الخامس والعشرين من أكتوبر وصل الجيش المسيحي، وتقسم على ثلاثة أقسام أمام مدينة الجزائر المحصنة. وكانت أولى السفن التي احترقت هي السفن الشراعية، في حين صمدت القوادس زمنا أطول.(١١٢)، وأن الجدافين سرعان ما فقدوا القدرة على تحريك المجاديف، واستولى الهلع على من كان في تلك السفن. ومما زاد الأمر سوءا أنهم كانوا عاجزين عن التخاطب والتفاهم فيما بينهم بسبب انتماءاتهم إلى جنسيات وقوميات مختلفة، فانهزم الإيطاليون في فوضى شديدة، وفر الألمان دون قتال. وبعد يومين فقدت (١٦٠) سفينة وأكثر من ألف محارب(١١٣)، مما أصاب الإمبراطور بنوبة يأس شديدة، اعتزال في إثرها العالم، وعكف على الصلاة. وفي الوقت ذاته، حاول من تبقى من الجنود العثمانيين ملاحقتهم بهتاف الله أكبر(١١٤). وبقي الجنود المسيحيون خمسة أيام في طريقهم إلى سفنهم، ثم هبت عاصفة أخرى أغرقت عددا آخر من السفن وشتتت البقية في البحر، فلاذ الإمبراطور والجنود الباقون بالفرار إلى بجاية حيث انعدمت الأغذية لدرجة أنهم اضطروا إلى أكل الأعشاب ولحوم الكلاب والقطط (١١٥)، بل أن الإمبراطور نفسه أكل لحم فرسه(١١٦). لم يتعرض الإمبراطور بحياته قط لمثل هذه الهزيمة المرة، لقد فقد كل ما لديه من سفن ومدافع وعتاد وخيول، ومات من جنوده ما لا يحصى — عددهم. وهكذا بدأ إنسحاب الأسطول المسيحي من أرض الجزائر في الأول من تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٥٤١ م(١١٧).

كان للانتصار العثماني في الجزائر نتائج مهمة في مسيرة الصراع البحري بين العثمانيين وآل هابسبورغ، يمكن إجمالها بخمسة محاور رئيسية: الأول، أنه أكد تفوق العثمانيين بحرا في منطقة كانت تمثل آخر حلقة تستطيع من خلالها إسبانيا تأمين حدودها البحرية مع العثمانيين؛ والثاني، أنه شجع العثمانيين على شن المزيد من الحملات البحرية في المواقع الخاضعة للنفوذ الإسباني في شمالي أفريقيا؛ والثالث، أن العثمانيين تفرغوا، بعد هذا الانتصار، إلى الشرق حيث كان صراعهم مع الصفويين محتدما؛ والرابع، أنه أسهم في تقويض هيبة الإمبراطور الإسباني في بلاده وفي أراضي الممتلكات التابعة له. كما عمل على تنمر الفرنسيين والبروتستانت عليه أكثر من أي وقت مضى؛ وأخيرا، إن هذا الانتصار، وهو آخر انتصار بحري عثماني كبير خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، أسهم في تأجيل الحروب البحرية مدة عقد آخر من الزمان لم يدخل خلاله الطرفان في مواجهة جدية، وكان هذا الوقت كافيا ليستعيد الأسطول العثماني قوته لشن حملات أخرى، كما سنرى.

ولكن الأمر اللافت للنظر في معركة الجزائر عدم مشاركة خير الدين بها، بسبب وجوده في العاصمة العثمانية حينها. وبما أنه أصبح جزءا من الطاقم الإداري العثماني، بصفته القائد العام للأسطول، فإنه كان خاضعا للأوامر العليا للقيادة العثمانية التي أرجأت توجهه إلى الجزائر منذ البداية. ولكن خير

(١١٢) أنيس عبد الخالق محمود القيسي، مرجع سابق، ص ١٣٠.

(١١٣) كلو، غازي الغزاة سليمان القانوني، ص ١٤٧.

(١١٤) المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ٢٨٦.

(١١٥) كلو، غازي الغزاة سليمان القانوني، ص ١٤٨.

(١١٦) مذكرات خير الدين، ص ٢٠٧.

(١١٧) المدني، حرب الثلاثمائة سن بين الجزائر وإسبانيا، ص ٢٩٥.

الدين بفضل خبرته البحرية الطويلة، كان يعلم بتحركات شار الخامس ونيته في شن حملة كبيرة لاجتياح الجزائر، واقترح، منذ يونيو سنة ١٥٤١ م، تجهيز أسطول حربي قوامه (١٠٠) سفينة، ترسل خمسون منها إلى الساحل الجزائري، بينما تقوم الخمسون الأخرى باعتراض الأسطول المسيحي. لكن رجال البلاط العثماني رفضوا هذه الخطة، بدعوى أن الدولة لا يمكن أن تستغني عن هذا العدد الكبير من السفن في وقت كان أمر الحملة مشكوكا فيه؛ فإذا ما تحققت، فسيمكن حينذاك إرسال الأسطول. وخلال هذا الوقت يمكن الاعتماد على القوات المرابطة في دفاعات المدينة، وعندما يرسل الأسطول سيقع العدو بين طرفي كماشة: القوات البرية من جانب، والأسطول القادم من جانب آخر. ولا شك أن رؤية ساسة القيادة العثمانية العليا عكست قصورا في التصور العسكري، فلم تكن تتحسب للأمور كما ينبغي، أو كما كان يتحسب لها خير الدين. وعلى أية حال، ما أن وصلت أنباء الحملة الإسبانية إلى مسامع المسؤولين العثمانيين، حتى تقرر تجهيز خير الدين بأسطول قوي لمواجهة الموقف، ولكن بعد أن حسم الموقف وانتهت المعركة.

التحالف مع الفرنسيين ووفاة خير الدين بربروسا (١٥٣٣ – ١٥٤٦ م)

بعد أن علم خير الدين بنجاة الإمبراطور وفراره إلى بلاده، قرر ملاحقته إلى عقر داره. وتوافقت نيته هذه مع رغبة الملك الفرنسي في طلب مساعدة خير الدين ضد الإمبراطور، إذ كانت العلاقات العثمانية الفرنسية تسمح بالقيام بتحرك من هذا النوع، لا سيما أن خير الدين أدى دورا مهما في تطوير تلك العلاقات[١١٨]. فمنذ صيف سنة ١٥٣٣ م، وصل مبعوث من خير الدين لمقابلة الملك الفرنسي، بصحبته عدد من الأسرى الفرنسيين كان خير الدين قد أطلق سراحهم، وكان لذلك أثر كبير في نفس الملك فرنسوا الأول، فأكرم المبعوث أيما إكرام[١١٩]. وبعد مدة وجيزة وصل إلى فرنسا سفير السلطان، يطلب من فرانسوا الأول عدم إبرام الصلح مع الإمبراطور، لأنه سيتكفل بإعادة كل ما أخذ منه أثناء أسره[١٢٠].

بعد زيارة هذين الوفدين استمرت المفاوضات. فقد سافر المبعوث الفرنسي جان دو لافوريه لمقابلة خير الدين في الجزائر، ثم في رودس، وأخيرا في حلب، حيث كان إبراهيم باشا؛ فعقد معه اتفاقا يلتزم السلطان بمقتضاه بإرسال خير الدين إلى كل من نابولي وتونس بأسرع ما يمكن[١٢١]. وقد صادق السلطان على هذا الاتفاق وأرسل (٦٠٠) ألف دوكة إلى خير الدين، الذي انطلق إلى إيطاليا في الغارة التي حاول فيها أسر الأميرة جوليا كونزاكا. وبعدها بمدة فتح تونس. وكان ذلك نجاحا لفرنسا، إذ خرج الحوضان

---

(١١٨) بدأت جذور هذا التحالف منذ سنة ١٥٢٥ م، عندما طلب فرانسوا الأول من السلطان العثماني مساعدة عسكرية بعد الكارثة التي حلت به في معركة بافيا (Pavia) التي أسر فيها وولداه لدى الإمبراطور شارل الخامس وسجنوا في مدريد.

De Lamar Jansen, " The Ottoman Turks in Sixteenth Century French Diplomacy ", Sixteenth Century Journal, vol. 16, No. 4, 1985, pp. 452

G. R. Potter (ed.) The New Cambridge Modern History, vol. I: " The Renaissance 1493 – 1520 ", Cambridge University Press. Cambridge, 1967, p. 264.

(١١٩) كلو، غازي الغزاة سليمان القانوني، ص ١٦٧. ويتحدث ستانفورد شو عن وجود بعض الإشارات التي على أن فرنسا شجعت خير الدين للدخول في خدمة السلطان، على أمل صرف أنظار آل هابسبورغ عن الغرب.

(120) Shaw, History of the Ottoman Empire, I, p. 97.

(١٢١) أنيس عبد الخالق محمود القيسي، مرجع سابق، ص ١٣٣.

الأوسط والغربي من البحر المتوسط عن الهيمنة الإسبانية، وباتت خطوط شارل الخامس مهددة. وقد أدت تلك التطورات إلى تزايد القلق الأوروبي من احتمال تحول ذلك التحالف إلى خطر يهدد العالم المسيحي، لا سيما بعد وصول سفير فرانسوا الأول، جان دو لافوريه في مايو ١٥٣٥ م، بصفته أول سفير فرنسي — في العاصمة العثمانية.

كانت التوجيهات التي تلقاها لافوريه، تقضي أن يتوجه إلى خير الدين لإبلاغه بالمخطط الفرنسي — الرامي إلى مهاجمة جنوا برا، في حين يقوم خير الدين بمهاجمتها بحرا(١٢٢). وكان فرانسوا يؤكد دوما، أن إخضاع جنوا وكورسيكا يخدم مصالح السلطان، ولكنه في الوقت ذاته، كان يؤكد على أهمية صرف أنظاره عن مهاجمة الدانوب، لأن من شأن ذلك دفع الأمراء الألمان للالتفاف حول شارل الخامس، وهو ما يخشاه. لذا، فقد كان التحالف هجوما — دفاعيا، وهو أول تحالف بين دولة أوروبية وبين السلطان العثماني. ثم كلف لافوريه بالتوجه إلى الباب العالي لترتيب تقارب مع العثمانيين.

غادر لافوريه متوجها إلى خير الدين في تونس، ثم عاد إلى إسطنبول حينما كان السلطان في حملة ببلاد فارس بعد عودته من حملة بغداد. في هذا الوقت اختار شارل الخامس أن يوجه ضربته إلى تونس ليثبت لأوروبا أنه هو حاميها، وليس الملك الفرنسي المتحالف مع السلطان الكافر. وفي هذا الوقت أيضا منحت الدولة العثمانية فرنسا امتيازات تجارية وسياسية في ممتلكات الدولة العثمانية (١٢٣). وبغض النظر عن وجود وثيقة الامتيازات أو عدمه، إذ يشكك بعض المؤرخين في ذلك(١٢٤). فمما لا شك فيه أن هناك التزامات عسكرية تم الاتفاق عليها بين الطرفين، إذ تضمنت إحدى الخطط، كما رأينا، شن هجوم بري — بحري على إيطاليا. لكن ذلك الهجوم أخفق، بسبب تراجع الملك الفرنسي — عند تنفيذ الجزء المحدد له بالخطة(١٢٥).

استمرت العلاقات بين الطرفين بتعيين سفير جديد هو بولين دو لاغارد (Polin du La Garde)، في الوقت الذي كانت فيه قوات التحالف المسيحي بقيادة شارل الخامس تمنى بهزيمة مرة في الجزائر سنة ١٥٤١ م، أصبح في إثرها السلطان في أوج مجده، وتم الاتفاق بينه وبين الملك الفرنسي على مهاجمة شارل الخامس بهجوم فرنسي — عثماني مشترك؛ إذ يقوم قسم من الأسطول الفرنسي بمهاجمة السواحل الإسبانية، ويقوم القسم الآخر من الأسطول بتعزيز أسطول السلطان في البحر المتوسط. وقد وجه السلطان سليمان رسالة إلى فرانسوا الأول، جاء فيها:

مفخرة ملوك ملة عيسى: فلتعلم أنني منحت وزيرك بولان
أسطولي العتيد المجهز بكل ما يلزم، وأوصيت القبودان باشا خير
الدين بالإصغاء إلى مقاصدك وبصرف عنايته للقضاء على أعدائك

وفور وصول تلك الرسالة، في بداية إبريل سنة ١٥٤٣ م، اجتاز أسطول عثماني مكون من (٣٠٠) سفينة من مختلف الأحجام والأنواع، مضيق الدردنيل متوجها إلى إيطاليا، تمكن خلالها خير

(١٢٢) في هذه الأثناء كان هناك مبعوث من بربروسا في فرنسا، منذ يوليو سنة ١٥٣٣ م، يتفاوض بشأن الاتفاقية المزمعة.

(123) V. L. Bourrilly, " L'Ambassade de La Forest et de Marillac à Constantinople, 1535 – 1538 ", Revue Historique,, , May - June 1901, pp. 297 – 328.

(١٢٤) أنيس عبد الخالق محمود القيسي، مرجع سابق، ص ١٣٤.

(١٢٥) كلو، غازي الغزاة سليمان القانوني، ص ١٧٤.

الدين من إخضاع سواحل كالابريا وسردينيا وكورسيكا ونابولي. وهناك تزوج، وقد شارف على الثمانين من عمره، من فتاة إيطالية في الثامنة عشرة من عمرها(١٢٦)، اعتنقت الإسلام على يديه.

ومن السواحل الإيطالية توجه خير الدين إلى مرسيليا، ومن هناك تقرر شن الحملة العثمانية — الفرنسية المشتركة على السواحل الإسبانية، وعلى ميناء نيس الفرنسي — التابع للنفوذ الإسباني. لكن الحملة باءت بالفشل بسبب ضعف استعدادات الأسطول الفرنسي من جانب، وتراجع فرانسوا الأول كعادته عن تنفيذ الجزء الخاص به من الخطة، من جانب آخر (١٢٧). وعلى هذا الأساس، إحتل خير الدين ميناء طولون في الخامس من أغسطس سنة ١٥٤٣ م، وأجبر السلطات المحلية الفرنسية على شن حملة أخرى نحو نيس بين العشرين من أغسطس إلى الثامن من سبتمبر. ولكن الهجوم فشل هذه المرة أيضا بسبب شحة البارود لدى الفرنسيين (١٢٨)، وتكبدت القوات المشتركة، نتيجة لذلك خسائر بلغت ثلاثمائة قتيل وعددا كبيرا من الجرحى، مما أثار غضب خير الدين، بعد خيبة أمله من الموقف الفرنسي –؛ فضلا هن عقد صلح كرسبي(١٢٩) (Peace of Crespy) بين فرنسا وآل هابيبورغ في الثامن عشر من سبتمبر سنة ١٥٤٤ م، اضطر السلطان سليمان للتوقيع، هو الآخر، لعقد هدنة مع آل هابيبورغ في العاشر من ١٥٤٥ م، نصت على إبقاء الوضع القائم على ما هو عليه، مع اعتراف شارل الخامس بالفتوحات العثمانية الجديدة، وامتناع كلا الطرفين عن الإغارة على أراضي بعضهما البعض. وقد تحولت هذه الهدنة إلى معاهدة صلح دائم في الثالث عشر من يوليو سنة ١٥٤٧ م بعد وفاة فرانسوا الأول، مع شروط جديدة وسعت الامتيازات التجارية لآل هابسبورغ (١٣٠).

قرر خير الدين العودة إلى إسطنبول، حيث توفي بعد مدة وجيزة، في أغسطس سنة ١٥٤٦ م (١٣١)، وقد تجاوز الثمانين من عمره بقليل، ودفن في بشكطاش، إحدى ضواحي إسطنبول. وبوفاته، أنهى كاتب جلبي حديثه عنه بعبارته المؤثرة: مات رئيس البحر. ولكن خير الدين لم يمت إلا بعد أن ترك وراءه رجالا لمعت أسماؤهم في ميادين البحر المتوسط، وواصلوا المهمة التي بدأها بمد النفوذ العثماني في شمالي أفريقيا، وحماية المسلمين من هجمات الأساطيل الأوروبية.

خاتمة:

(١٢٦) كلو، غازي الغزاة سليمان القانوني، ص ١٧٣ – ١٧٤.

(١٢٧) يفسر المؤرخ ستانفورد شو الموقف الفرنسي بقوله: أن الشكاوى بشأن التعاون مع العثمانيين دفعت فرانسوا الأول إلى التخلي عن وعوده بالتعاون ضد آل هابسبورغ. Shaw, History of the Ottoman Empire, I, p. 103.

(128) Shaw, History of the Ottoman Empire, I, p. 103.

على الرغم من إخفاق الحملة العسكرية الفرنسية – العثمانية لسنة (١٥٤٣ – ١٥٤٤ م)، فإن التعاون بين القوتين أثبت فائدته للطرفين، إذ زاد من مخاوف شارل الخامس.

(١٢٩) معاهدة بين فرانسوا الأول وشارل الخامس، عقدت في الثامن عشر من سبتمبر سنة ١٥٤٤ م، أنهت حرب السنتين بين الطرفين، وأعادت الوحدة إلى أوروبا. فقدت بموجبها فرنسا كلا من آراتوا والفلاندرز، وتخلت عن مطالبتها بنابولي. وأعيدت بيدمونت وسافوي إلى حاكمها الشرعي، وأعلن شارل مطالبته ببرغنديا، واستمرت ميلان بحوزته بصفته إمبراطورا للإمبراطورية الرومانية المقدسة.

(130) Shaw, History of the Ottoman Empire, I, p. 103.

(١٣١) هذا ما تتفق عليه معظم المصادر، أما أحمد توفيق المدني فيذكر أن وفاته كانت في شهر مايو سنة ١٥٤٧ م. حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ٣١٧، في حين يذكر كاتب جلبي (حاجي خليفة) أن وفاته كانت في السادس من جمادي الأول سنة ٩٥٣ هـ (الموافق للرابع من يوليو سنة ١٥٤٦ م). جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار، ص ٢٧.

وهكذا أصبح كل من خير الدين بربروس وعروج سيدا البحر المتوسط بلا منازع واستطاعا أن يكتسبا احتراما كبيرا من قبل أهالي شمال أفريقيا، واستطاع الأسطول العثماني في ظل رئاستهما من تدعيم السيطرة العثمانية على غربي البحر المتوسط. وتطهيره من قراصنة أوربا بحيث تمكنت القوات الجزائرية والعثمانية من إخراج الإسبان من تونس والجزائر في القرن ١٦، وكان إنقاذ شمال إفريقيا من الاستعمار الإسباني هدفا الإخوة بربروس وإليهم يرجع الفضل في بقاء شمال إفريقيا تحت سيطرة الدولة العثمانية.

وفي تقويمنا للعلاقات العثمانية الفرنسية خلال تلك المرحلة، يمكننا القول أن هناك وفاقا بين القوتين، لا سيما في الميدان البحري العسكري، عندما بدأت الأساطيل الفرنسية والعثمانية التابعة لخير الدين بالتعاون ضد الإسبان العدو المشترك. وكانت أولى المغامرات المشتركة بين الطرفين غير موفقة، بسبب سوء تصرف الملك الفرنسي -. ولكن الانتصار العثماني في بروزة سنة ١٥٣٨ م على أساطيل التحالف الأوروبي، تم بوجود المساعدة الفرنسية، لتبدأ بعدها حقبة استمرت ثلاثين سنة من الهيمنة العثمانية في البحر المتوسط، مع الاستمرار بشن الغارات شبه اليومية ضد السواحل الإسبانية والإيطالية.

المصادر والمراجع

مصادر ومراجع عربية:

- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا، (١٤٩٢ — ١٧٩٢) دار البصائر، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧ م.
- أنيس عبد الخالق محمود القيسي، النشاط البحري العثماني في البحر المتوسط خلال القرن جمال السادس عشر، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآداب، بغداد، ٢٠٠٨ م.
- بسام العسيلي، خير الدين بربروس والجهاد في البحر (١٤٧٠ — ١٥٤٧ م) دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠ م.
- فنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث (١٥٠٠ — ١٨٣٠)، المؤسسة الجزائرية للطباعة، ١٩٨٧ م.
- جلال يحيى، المغرب الكبير: العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦ م.
- درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، الإسكندرية، ١٩٧٤ م.
- عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ج ٢، ٢٠٠٤ م.
- عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨٩، أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار التونسية للنشر، تونس، ج ٢، ١٩٧٧ م.
- علي رضا سيفي، بارباروس خير الدين، شمس مطبعة سي، در سعادت، ١٣٢٦ — ١٣٢٨هـ ١٩٠٨ — ١٩١٠ م.
- كاتب جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار، قسطنطينة، دار الطباعة المعمورة، ١١٤١ هـ.

- كورين شو فالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (١٥١٠ – ١٥٤١) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٨.
- مجاهد مسعود، تاريخ الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ج ١، ٢٠٠٢ م.
- محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مكتبة الأداب، القاهرة، ٢٠٠٩ م.
- مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر، ١٩٣٤ م، مذكرات خير الدين، ترجمة محمد دراج، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠١٢ م.
- مصطفى بن الحاج إبراهيم، تاريخ وقايع مصر القاهرة المحروسة كنانة الله في أرضه، تحقيق صلاح أحمد هريدي علي، دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢ م.
- نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، دار الحضارة، ٢٠٠٦.
- وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب عبد القادر زيادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٦ م.
- يحيى بو عزيز، الموجز في تاريخ الجزائر (الجزائر الحديثة) ديوان المطبوعات الجامعية، وزارة الثقافة، الجزائر، ج ٢، ٢٠٠٧ م.
- يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، محمود الأنصار، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا – استانبول، المجلد الأول، ١٩٨٨ م.

دوريات:

رأفت غنيم الشيخ: أقرصنة أم جهاد بحري إسلامي، صفحة من محاولة تشويه تاريخ الأمة الإسلامية، بحث مقدم إلى ندوة " تاريخ الأمة الإسلامية بين الموضوعية والتحيز " بالتعاون بين كلية الآداب – جامعة الزقازيق ورابطة الجامعات الإسلامية التي عقدت في الفترة من ٢١ – ٢٣ ربيع الأول ١٤١٠ هـ / ٢١ – ٢٣ أكتوبر ١٩٨٩ م.

- عبد الجليل التميمي، " أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة ١٥١٩ "، المجلة التاريخية المغربية، العدد ٧ – ٨، جانفي / يناير، ١٩٧٧ م، ص ١١٧ [١١٦ – ١٢٠]. ونشر النص الفرنسي لهذه الرسالة في:
  - Temimi, Abdeljelil, " Lettre de la Population Algeroise Sultan Selim 1er en 1519 ", Revue d' Histoire Maghrebine, tome V, Tunis, Jan. 1976, pp. 95 – 101.

  والرسالة محفوظة في مركز الوثائق الوطنية بمتحف طوب قابي بإسطنبول، تحت رقم (٦٤٥٦).
- فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي: دراسة تاريخية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصرا (مطلع العهد العثماني – أواسط القرن التاسع عشر)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧ م.

- مولاي بلحميسي " غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م بين المصادر الإسلامية والمصادر الغربية " مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، العدد ٨، مايو ١٩٧٢ م.

المراجع الأجنبية:

- Albert Prieur,les Barbarousses,Corsaires etrois D'Alger, Edition ARC- encie,Paris, S.D..
- Charles-Andre Julien, Histoire de 1’ Afrique du Nord, Payot, Paris, 1931.
- Diego de Haedo , Histoire des rois d'Alger, traduit de l'espagnol par de Grammont editions grand-Alger-livres, Alger,2004
- De Lamar Jansen, «The Ottoman Turks in Sixteenth Century French Diplomacy)), Sixteenth Century Journal, vol. 16, No. 4, 1985.
- De Grammont (H.d); Histoire d'Alger sous la domination Turque (1515- 1830),Emest leroux,Editeur,Paris 1887.
- G. R. Potter (ed.), The New Cambridge Modern History, vol. I: «The Renaissance 1493-1520», Cambridge University Press, Cambridge, 1967,
- Godfrey Fisher, Barbary legend war , Ttrade and piracy in north Africa; 1415- 1815,clarendon press,oxford, 1957.
- Jamil Abun-Nasr, A History of the Maghrib in the Islamic Period, Cambridge University Press, Cambridge, 1987,
- Robert Mantran, «North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries)), in: P. M. Holt & Bernard Lewis (eds.), The Cambridge History of Islam, vol. II, University press, Cambridge, 1970.
- Stanford J. Shaw, History of Ottoman Empire and Modem Turkey, vol. I, Cambridge, University press, Cambridge, 1976-1977
- Stanley Lane-Poole, The Story of Barbary Corsairs, London, 1890.
- Temimi, Abdeljelil, «Lettre de la Population Algeroise au Sultan Selim ler en 1519», Revue d’ Histoire Maghrebine, tome V, Tunis, Jan. 1976
- V. L. Bourrilly, «L'Ambassade de La Forest et de Marillac a Constantinople, 1535-1538», Revue Historique, 76, May-June 1901.
- William Hickling Priscott, History of the Reign of Fernand and Isabella the Catholic of Spain, vol. 3, 5th ed., Richard Bentley, London, 1849.